

المركز القومي للترجمة

خوان جويتيسولو

الأربعينية

ترجمة: عبير عبد الحافظ

2510

سلسلة الإبداع القصصي

الأربعينية

رواية

تأليـف: خـوان جويتيسولو
ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2510
- الأربعينية
- خوان جويتيسولو
- عبير محمد عبد الحافظ
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

La Cuarentena

By: Juan Goytisolo

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جويتيسولو ، خوان.
الأربعينية: رواية / تأليف خوان جويتيسولو؛ ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ .-
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة. المقـــــاس: ١٤ x ٢٠ سم.
(سلسة الإبداع القصصى؛ ٢٥١٠).
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٨٩٥٦٩
١ - القصص الأسبانية.
أ- عبد الحافظ، عبير محمد (مترجم).
ب - العنوان.
جـ - السلسلة.

٨٦٣

رقم الإيداع ٢٢٣٥٠ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 956- 9

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

إهـــــــداء

إلى أخـــي أحمـــد . .

مرشـــدي الأول

شكر واجب

في البداية أوجه الشكر العميق للكاتب الإسباني خوان جويتيسولو، عن هذا العمل المبدع «الأربعينية» الذي اقترب فيه من العوالم العربية الإسلامية، وطرح رؤية استشراقية كاشفة بأعين غربية. وقبل أي شيء أستاذي أ.د. محمد أبو العطا، أحد فرسان الدراسات الإسبانية الأجلاء في مصر والوطن العربي، فترجمات أعمال الكاتب الإسباني" خوان جويتيسولو إلى العربية بالتعاون مع المركز القومي للترجمة كانت بمبادرة منه، وكذلك ترشيحي لترجمة هذا العمل القيم. وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر الشاعر أحمد الشهاوي الذي لم يدخر جهدًا في قراءة المخطوطة في صورتها النهائية.

عبير عبد الحافظ

كلمة المترجمة

جويتيسولو و«الأربعينية» والاستشراق الإسباني الجديد

1 – كونية النص السردي

يعد الكاتب الإسباني *خوان جويتيسولو(برشلونة، 1931) أحد أشهر القامات الأدبية في الأدب الناطق بالإسبانية. تنوع نتاجه الأدبي ما بين الرواية، والقصة، وأدب الرحلات، والدراسات النقدية والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامه بقضايا كونية، والتعددية الثقافية، ورغبته الجادة وعمله الحثيث من أجل سبر أغوار عوالم مغايرة، والتعرف على الآخر معرفة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثل آراء النقاد ولجان التحكيم التي تناولت أعماله وارتأت التعددية والانخراط في الثقافات المتنوعة ليس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء ودروبه بينها وبين الثقافة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التي تحل فيها الثقافة الإسلامية العربية ركنًا لا يقبل النزاع. بهذا الشكل تطل كتابات جويتيسولو بسماتها الكونية السردية لتجمع بين الشرق والغرب والأيديولوجيات الدينية والفكرية بأنواعها، وهو ما تتكئ عليه بنية رواية «الأربعينية» (1991).

وهو ما أكدته لجنة جائزة «خوان رولفو» المكسيكية حين منحت جويتيسولو الجائزة الأدبية الرفيعة، وارتأت نقاط القوة في كتابته حيث: «تعمق كتابات جويتيسولو المتنوعة الحوار بين الثقافات العربية والمسيحية واليهودية (...). فمنذ صدور روايته «الكونت دون خوليان»، لم تحد أعماله عن مسارها الذي خطته في تلاحم وانسجام واضح وإبداع حر وأصيل».

2 - حتمية الوجود العربي الإسلامي

بهذا الشكل فإن العالم العربي الإسلامي يعكس واحدًا من الفضاءات السردية المفضلة لدى الكاتب الإسباني، الذي عرف عنه ولعه الشديد بكل ما هو عربي إسلامي في العديد من المناحي التاريخية والتراثية والأدبية والسياسية، وعلاقته المؤثرة في الغرب بشكل عام و إسبانيا على وجه التحديد، فيعمد في كتاباته إلى التركيز على هذا الجانب وإبراز اللحمة التاريخية التي رسخت التواصل والاندماج الثقافي بين إسبانيا والعرب والإسلام. ويشير جويتيسولو في كثير من الأحيان إلى الجانب العربي الإسلامي المتجذر في كيانه، وهو ما يتسبب في إثارة غضب بعض بني جلدته، فيعبر عن دهشته من تجاهل هذا الباع الثقافي في بلاده، الذي يقتصر على بعض الاهتمام المحدود من قبل المستعربين المتخصصين في بلاده، فيقول: «يتجاهل الجميع التراث العربي الإسلامي بالكامل في إسبانيا باستثناء بعض المستعربين

المتخصصيـن، ذلك على الرغم من معرفتنا بأهمية هذا العنصر في تكوين بلادنا الثقافي».

ويستكمـل جويتيسولو من هـذه البؤرة الروائيـة المسيرة التي بدأها الكاتـب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس؛ حيث كان من أوائـل الكتـاب المعاصرين فـي الأدب الناطـق بالإسبانية، الذين ألقوا الضوء علـى التراث العربي الإسلامـي، ودمجه واستلهمه كمصدر للكتابـة الجديدة في حقبة الطليعة في أمريكا اللاتينية بشكل عـام، والأرجنتين بشكل خاص، ومن أبـرز هذا النتاج مجموعة «الألـف» التي برزت فيها عناصر سرديـة مستوحاة من ألف ليلة وليلة والقرآن، والفلسفة والتصوف الإسلامي.

فيقول في سيرته الذاتية:

«لكوني إسبانيًا فـي قطالونيا، وفرنسيًا في إسبانيا، وإسبانيًا في فرنسـا، ولاتينيًا في أمريكا، ونصرانيًا فـي المغرب، وعربيًا في كل الأزمنة (...) كان الصراع العائلي بين ثقافتين أول إشارة في تصوري الآن لحالة مستقبلية من الانكسارات والتوترات النشطة، التي تؤكد لي ضرورة أن أكون خارج أسوار أيديولوجيات أو نظم أو كيانات مجردة اتسمت دائماً بالانكفاء على الذات والتقوقع».

فـي هذا الصـدد، يسعى الكاتـب الإسباني في أعمالـه المتأثرة بالوجود العربي بشكل عام، وفي رواية الأربعينية بشكل خاص؛

لإقامة مقاربات أيديولوجية وموزاييك بنائي قوامه مشاهد مؤسسة على الباع الثقافي والتراث الإسباني والعربي الإسلامي، فينبذ بهذا الشكل الهيمنة الثقافية الغربية، واعتبار هويتها وتكوينها يتفوقان على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية، لتقر بحسب إدوارد سعيد «بالتفوق الغربي على التخلف الشرقي».

3ـ الأربعينية واستشراف الربيع العربي

جدير بالذكر، أن الاهتمام الذي أولاه الكاتب الإسباني لهذا الجانب تمثل جليًّا في باقة من أعماله، ارتبطت بعالمنا العربي الإسلامي، وليس بالشرق في مجمله بشكل عام، مثل العديد من المستشرقين. فترى عناوين أعماله مثل «مقبرة»، «ملوك الطوائف»، «مقاربات إلى العالم الإسباني»، «مقاربات جاودي في كابادوثيا»، «القبلة»، «مشاهد من الحرب: ساراييفو، الجزائر، فلسطين، الشيشان»، وغيرها من الأعمال..

وبالنظر إلى اهتمام الكاتب بكل ما هو عربي إسلامي يتم طرح الرؤى الثلاث التالية:

1- هل يهدف جويتيسولو من خلال الأربعينية إلى تقديم عمل استشرافي كاشف للعوالم العربية الإسلامية والصوفية ؟

2- أم يهدف لابتداع تكوين روائي يستند إلى العناصر العربية كمادة وأساس أسوة بـ بورخس مثلاً ؟

3-أم يسعى للجمع ما بين الغايتين في قالب واحد واستشراف مستقبل الأمة، فتصبح الأربعينية مرحلة تتنبأ بالثورة؟

بهذا الشكل يفسح الطريق لسطوة التأويل الأدبي الذي يعرفه هايدجر على أنه ليس شيئاً نفعله بل شيئاً علينا أن ندعه يحدث، فعلينا أن نفتح أنفسنا إلى النص بصورة سلبية «مخضعين أنفسنا لكينونته الملغزة التي لا تنضب، متيحين له أن يستنطقنا».

في كل الأحوال يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يومًا التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلة روحية صوفية، ينطلق منها؛ ليرصد في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعدًا إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج. يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«المراتب السبعة» لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، مرورًا بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومى، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي، إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والإسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيفيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث، وغيرهم. وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دومًا خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة؛ حيث

المساجد، والمقابـر والأضرحة، واستشـراف الأجواء السحرية الغامضة التـي تعقب الأربعينية، فضلاً عمـا للقاهرة من باع على المستوى العربي الذي تعتبر جغرافيًّا وسياسيًّا في مركزه.

وتدلـل الرواية على الرؤية التأملية والبصيرة النافذة التي تمكن الكاتـب الإسباني من خلالهـا من سبر أغـوار المجتمعات العربية بشـكل عام ومصر والقاهرة بشكل خاص، حتى إنه من خلال آلية قـراءة ذكية متأنيـة يصبح بالإمكان التنبؤ باقتـراب حدث جلل في هذه المجتمعات، وهو ما تمثل بعد ذلك في ثورات الربيع العربي؛ حيث تضافرت رؤية جويتيسولـو مع العديد من الكتابات الروائية المصرية، التي تنبـأت ودفعت بشكل أو بآخر من خلال الاستلهام والتصريح الروائي باقتراب موجة الاحتجاجات والتغيير في العالم العربي، حتى إنه يذكر ميدان التحرير، وتناقضات القاهرة البشرية والجغرافية واقتراب نقطة الانفجار، فيستشهد بوصف ابن بطوطة عـن المدينة (ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية)، ثـم يصفها في واقعهـا الحالى أنها مدينة «مـن دون رحمة» تنتظر وتستلهم الرحمة كطوق نجـاة بالشكل الذي يرتأيه شعبها، وكانت الثورة.

عبير محمد عبد الحافظ

القاهرة 2012

تفترض كتابة نص ما وجود شبكة من العلاقات الرقيقة، تربط ما بين العقدات التي تنسج هذه الشبكة، وتتلاحم فيها الأحداث: لحظات الحياة، الدعابات، الأسفار، المصادفات. وتمتزج القراءات المحتملة بالفانتازيا والصور، من أجل دمج هذا التشابك المؤلف من نقاط التضاد والالتقاء، وجدائل الذاكرة والومضات المباغتة، والتيارات المتعاقبة.

عنّت لي فكرة كتابة هذا النص عشيّة العام الذي سبق الحرب. كنت قد أحكمت – مسبقًا – هذا الموضوع عند التفكير في لحظة الانتقال إلى الآخرة، ودفعني إليه الرحيل المباغت لصديقة، ورغبتي في معاودة التواصل لعلاقتنا الرهيفة من خلال الحكي.

اعتدنا أن ننهل معًا من قطوف كتب ابن عربي، وميجيل آسين بالاثيوس، ونصوص متعددة تحكي قصة الإسراء والمعراج للنبي، والقصائد الصوفية، وكتاب «المرشد الروحى» لمولينوس الذي حقّقه أفضل شعرائنا الأحياء، وكانت هي تحمله في اليوم الذي غابت فيه عن ناظري.

وشكّلت الإشارات المرجعية للصوفي أبي العباس المرسي، المعلم الأكبر، وخاتم الأولياء إلى عين الخيال والمملكة الوسيطة، التي تحضر بها الأرواح حين تخرج من قبورها النواة الأولى لعمل

فرضـ وجوده في نفسي، بشكل قاطـع، حين قرأت هذه السطور التي سأتلوها:

«وحيـن تطيـر الأرواح إلـى العالـم الوسيطـي أو البرزخ، تواصل الحضور في أجسادها، وتصير هذه إلى صورة ناعمة مثل التـي يرى المرء نفسه عليها فـي الأحلام. فالعالم الآخر ما هو إلا مقـر تتبدل فيه الأشكال على الدوام، علـى النحو نفسه في الأفكار المارقة في الأبعاد الداخلية له».

وفـي اللحظة التي تأهبـت فيها لأبـدأ تأليف الكتـاب في صورته الماديـة، توفيـت. وبعد الوقـت القصير الـذي عبـرت خلاله إلى اللانهايـة، انطلقت من نفســي، وأدركت على الفـور كينونة الخفة والسيولة.

تطلعـت إلى نفسي من الخارج، أصم وأعمى، بلا حماس، بلا شعـور، محاطًا باهتمام ذويي والحـزن الصامت لزوجتي. لبثت لبرهة في حجرتي، محاولاً ألا أقاطع برخاوة وجودي التحركات التعسـة، وانتظرت وصول المغسّل لأتيقن مـن أنه يقوم بالشعائر وفقًا لوصيتي الأخيرة. وعلى الرغم من أن مفهوم الزمن يتلاشى فـي النقطـة الواصلة ما بين العالميـن، أذكر أنني قمـت - ذهنيًا - بتنظيم نص هذا الكتاب وصف صفحاته خلال الفترة التي تهيم فيها الأرواح في فترة الأربعينية.

-2-

وأيضًا هناك؟

تمكنت النغمات الأولــى للكونشرتو من الاستيلاء بخفة ونعومة على الأجواء المحيطة بألفة مُترعة يشوبها الغموض.

أكنــت أعبر بهو الفنــدق الشاســع؟ أكنت أصعــد بالفعل في هذا المصعــد بهذه السرعة؟ أكنت أطير على ارتفاع 9 آلاف متر وعلى متن طائــرة تابعة للخطــوط الجويــة التركية، مثلما حــدث قبلاً، وأذكره جيدًا، خلال رحلة طيران داخلي ما بين مدينتي إرزوروم وأنقــرة؟ هل انبعثت هــذه الأصوات من أجهــزة مكبرة للصوت، خُبئت ببراعة ضمــن تصميم سياحي وظيفي، أم هي العلبة المبطنة بنسيج ناعــم التي تحمل الزبائــن الصامتين المهذبيــن، ثم تجعلهم يهبطــون بعد ذلــك؟ أم هو اصطفــاف مقاعد الطائــرة في لحظات التوتر التــي تسبق إقلاع نعش ما في هذه الطائرة أو هبوطه؟ كيف يمكــن تفسير هذه النغمات الدقيقــة التي بدت كأنها تنبعث من أماكن مبهمة بــلا نهاية من هذا الفضــاء الخاص بعالــم الأحلام، ضبابي وغير حقيقي؟ ربما تكون قد انبعثت من بحر سحيق بلا ضفاف يعكر تأمله النظــر! أم تكون أثرًا مشعًا من مسرح الأضواء، ومضات، بريق، شرارات، مع إخفاء التقلبات غير القابلة للكشف؟

أو لعلها من أصل ضوئي صافٍ ، مثل الهالة التي كانت تحيط بها حين تغمرها خيوط الضــوء المصبوغة المترعة، لتفحص باهتمام ساكن الجبال الوعرة الشاحبة، ذاتها القمم التي تستقر فوقها السحب والسماء الصافية الوادعة كأنها عمامات ، فيبدو سموها الخالص .

قالت: لكن لم يكــن هناك مصاعد أو فنادق ، أو حتى طائرات . لــو كانت موجــودة بالفعل لاصطدما بها فــي طريقهما . على بقائها هناك طوال هــذه المدة ، لم تلمح طائرة أو تسمع أزيزها ، بالرغم من مراقبتها الدائمة .

علــت وجهها ابتسامة بينما كانــت تتحدث ، مثل تلك الحقبة التي اعتادت فيهــا أن تتردد بانتظام على الأستوديــو ومعها النصوص منسوخــة على الآلة الكاتبة ، وكمــا اعتادت كانت تبدو على وجهها تلــك النظرة حين تخــرج من حقيبتهــا علبة السجائــر «جولويزيز بلــوز» ، فتشعل سيجارة ، وتبحث بعصبيــة بادية بين أكوام الكتب المتراكمة والمجلات عن منفضة سجائر ، عادة لم تتخلص منها في أثناء حديثنا ، على الرغــم من وضوح الأمر ، فلم تكن هناك حقيبة ولا تبغ ولا ولاعة ، لكن يبدو أنها كانت خاضعة لاصطناع ملامح وحركات جوفاء ، أو الانصياع لعادة تعرفها ببديهتها ، وإن لم تعد ذات نفع الآن .

من أين جاءت يا تــرى هذه النوتة الموسيقية كثيفة الألحان لهذا الكونشرتو ، الذي انسابــت ألحانه في عالمه السابق؛ كأنها الوحيدة

من نوعها، فــي تناغم محكم ما بين الشقاء والحنين؟ أكان الصوت القاســي للجيتار الذي يعزفــه الأعمى؟ أم اللحــن الممزق لعازف الناي في جذوة نشوته البهيجة.

حدق كل منهمــا بالآخر، تقاسما الاضطــراب الذي شعرا به، منبهرين بالبريق المتنامي للفلك الــذي يتحركان فيه، مشعًّا يفيض نــوره منسكبًا عليهما، يغمرهما، مثله مثل الأشعة السينية، يخترق كيانهما وعظامهمــا، فيبدو أنهما منبهران بالبريق والفيض الكثيف الذي يشع بهما جسداهما أثناء خلوة مباغتة وتلقائية مع النفس.

قالــت إنها لم تتفاجأ حين رأته يصل، كان فراقهما قاسيا. تنبأت بغموضــ أن علاقتهما لم تنقطــع. أرادت أن تخبره بشيء ما على عجل، ولم تستطع، ما حدث ببساطة أنه قد تأجل بعض الوقت.

والآن كل شــيء سهل ويسير، بالرغم من أن الأحزان السابقة كانت تدفعها إلــى البحث في الدخان عن أي دعم، وإن كان هينًا. كانت قريبة منه وفي الوقت نفسه بعيدة، كأنها غارقة في حلم آخر، إلا أنــه يتركها ساكنة، تشعر بخــواء، بالرغم من عاطفته الشحيحة غير الكافية.

هل تسبب الندم والعاطفة التي جانبت اللقاء بعد انقطاع مفاجئ، لــم تستوعبه، في جعــل دموعها تفيض في عينيهــا الجافيتين، تلك

الدموع التي غاصت في ذاك الهجران الداخلي، وإن كان متجذرًا من أثر إيمان راسخ، بمنأى عن التوبة والألم؟

في نصف الدائرة الرمزي، ذاك المكان الذي تلتقي فيه الأطياف الصديقة الأليفة منذ أزمان سحيقة، وصار تدريجيًا مثل الصحراء نتيجة للخراب والوباء وكبر السن. لماذا قابلها هي بالذات، ولم يلتق بمسافر أخر ممن ولجوا حديثًا هذا العالم الرهيف؟ ألم تكن تحتاج في موضعها هذا إلى دواء ناجع، بدلاً من مسكنات وحسب؟

ما الطرق التي دلتها على نفسها، كأنها عادت إلى مكانها الأثير، عبر هذا المجال الضبابي الخفيف غير المحدود؟ أهو التلاحم القادر على استدعاء الكونشرتو أم هي علامة مطمورة أكثر حميمية؟

للمرة الأولى، تأتي إليه من دون أن تكون بحاجة إلى استشارته بأمر ما، أو للاستفادة من معرفته، التي اعتاد أن يطلق عليها بسخرية معرفة عوراء، شعر أنه بعيد عنها وعن الملمس الناعم لتفاصيل جسدها.

هناك ستكون قادرًا على الاستفادة من خبرتهما المحتملة، والحنكة المكثفة التي حولت الذهول المبدئي لخفتها إلى حالة من الغبطة.

كانت تحادثه وقد بدا وجهها رقيقًا ناعمًا، مثل وجه شخص لا يسرف في الأمور الظاهرية، ويظل هادئًا في أعماق نفسه. شعرها

الخفيف، وعيناها الزرقاوان والغمازتان اللتان لا تخطئهما العين، حين تبتسم برقة وشيء من الخفر.

جعلا يصفقان ويلهوان بينما يستمعان للكونشرتو.

البرق والبريق المتقطع النابض يتزايد ضوؤهما الكثيف في سماء عليا، حيث لا شروق ولا غروب، لا يمين ولا يسار، لا علو ولا دنو، أحاطت بهما سحب في شكل خيوط، سائلة أم كثيفة، لم يعرفا أهو ذاك السحاب الرقيق، أم المتراكم، أهي غيوم أم سديم؟

أكان كل هذا شبيهًا بالماضي، مثلما زعمتْ؟ أم أن الأمر محض غواية أم حيلة ولهو بالحواس؟

شرعا يسيران متشابكي الأيدي. يتبقى لك أربعون يومًا، قالت لــه: بعدها يتغير مقرك، ومن يعلم هل سنــرى بعضنا البعض مرة أخرى؟ سأرشــدك وأجعلك ترى ما رأيته أنــا منذ أن ابتعدت عن كل مــا هو محسوس بينما أرتقي درجــات السلم. اصغَ للموسيقى، ونغماتهــا الحزينة النافــذة. استبدلوا بجيتــار الأعمى صوت الناي الذي يأسرك ويعزلك عما حولك.

لا تخطــط لشــيء، لا تخــطُ بقدمك. ألــم تخبرني أنــك أهديت زوجتــك فــي لقائكمــا الأول أسطوانــة لــ«ميلز دافيــز» عنوانها «كونشرتو أرانخويث»؟

-3-

أطللت برأسك، أو بما خلت أنه رأسك، من دون أن تتمكن من التيقـن من هذا الظن بالنظر إلى مـرآة تغيثك، فتطلعت إلى المشهد القاســي لأمم بأكملهــا، آلاف وآلاف المخلوقات الغريرة العمياء، الهاربــة مــن أراضــ متكلســة وحجرية، وســط مئــات الغابات والأنهــار الجافــة. أكان تهديــدًا مبدئيًا لألفية مشئومــة، من شأنها تشتيــت الشعوب، في صخب مبهم ملتبس، في كل الاتجاهات التي تهــب فيها الرياح؟ هل كانوا يبحثون عن ملاذ في ذاك البحر الذي تكتنفــه الغياهب الكثيفة المتكدسة، هربًا من جهنم الشرهة الحارقة، السلاح النووي أو الحرب الكيميائية؟

تقدمت بخطــى حثيثة عبــر المشهد الخرب ومصابيــح السيارة التــي كنــت تستقلها تكشف الأشبــاح والظلال البائســة التي حجبت عنها الرؤية، تتحسس طريقها في الظلام، وبأيديهم زجاجات من الشراب الرخيص، بينما تتوهج جذوة الرعب الرابضة في مقلات أعينهم.

إلي أين كانوا ذاهبين، وممن كانوا يهربون؟

هــل تحققت تهديدات الأجساد الرخوة، هــذه الأجساد المائعة، المدن بأطلالهــا، الأعضاء المبتورة لعــدد لا يحصى من الضحايا

المتبعثـرة في بحور من الدمـاء؟ أم أن المسألـة تتعلق بحشود من الممسوسين الذين لاذوا بالفرار خوفًا من العقاب الوشيك؟ قالت له كأنهـا تقرأ أفكاره: إن هؤلاء يجولـون الأرض ليمحوا مثلهم العليا الميتة وعقائدهم المتعفنة.

كانـت السيارة قديمة من طـراز (DKW) يعـود تاريخها إلى طفولتـك، ربما تكون لادا متهالكة وقذرة، تتحرك فيما يبدو بحذر ومن تلقاء ذاتها كيفما اتفق.

مجموعـات مـن العصابات الثملـة، أفرادها غزيـرو الشعر، ينبثقـون مـن الظـلام، فيصبون علـى كـم اللعنات بلغـة بدائية، تعبيراتها غامضة، ينطقـون بالأفعال في صيغة المصدر من دون تصريفهـا. بعضهـم كان يجري مثل الأرانـب البرية المذعورة، كأنهـا تفاجأت خـلال جولتها الليليـة، أو مثل الهـوام التي تقترب من اللهب فتحـرق. عملت عندئذ علـى أن تتجنبهم، فكانت ترسم خطوطًـا علـى الإسفلت الذي بدت فيه حفائـر غائرة مثل علامات الجديري، بسرعة شديدة مصحوبة بترقب.

انزلقـت السيارة في طريقهـا بجدارة. على الرغـم من قدمها ومحركها المتهالك، كانـت قادرة بأعجوبة على تلافي مجموعات من الأشخاصـ الهائمين المحملين بكومات، وسلالاتهم المنسوخة متراكبة مثل عناقيد العنب الهلوع.

ترين هجرات متتابعة، وجثثًا أخرجت من أجداثها بكل حقد، وتماثيل ضخمة انتزعت من قواعدها وتم تحطيمها بمطرقات، وكتبًا عقائدية وسياسية أساسية ألقيت في النار، وحرق العظام، وشوارع وميادين تنزع عنها أسماؤها، وأجساداً مكبلة تتحول لرماد، ومنازل متهدمة باسم سجل العار المشين، وشخوصاً هامدة، ذابلة، تالفة، فوضى، وفرقة من الممثلين الجائلين المحتالين. وقطعاناً ترعاها الذئاب بدلاً من الرعاة، لا مكان لذرة من الحقيقة، لا يوجد سوى كومات من التراب، أو جبال هشة.

هل اقتربا بعد ذلك من رؤية الأسطح الحلزونية؟ سماوات فلكية، دوائر الزهرة الصوفية، العوالم القمرية المنشقة من الفضيلة العارفة التي تضيء وتلهب الشمس الحقيقية؟ أم أن الأمر مثلما قرأ قبل العبور، محض خيالات و أكاذيب؟

لا تفقد صبرك، لا تكن عجولاً. على الرغم من أنني سبقتك إلى الخبرة والإدراك من دون حواس، فلم أر شيئًا بعيني رأسي ولا حتى في برامج الحلقات التليفزيونية. هؤلاء البشر يكتشفون- مثلما أعلن مواطن لك قبل أن يجيء إلى هنا بكثير- أنها ليست هذه النماذج الرافضة للمجتمع، عديمة الأخلاق، الإجرامية، الهائمة، حثالة المجتمع الهمجية، مثلما كانت تصورهم أجهزة الدعاية الخاصة بالأنظمة الحاكمة، بل هم مريدون آخرون

لمعلمين «يمدون الرياح بنظريات خادعة، يرمون الأحجار على أنهـا خبز، والأوراق على أنها فاكهة، وبدلاً من الطعام الحقيقي، يطرحـون أديمًـا قاسيًا مختلطًـا بالعسل المسمـم». يحرقون الآن بغضـب الأصنام التي عبدوها، ويلعنـون التضحية التي بذلوها بلا طائل لأجيال طويلة متعاقبة.

غالبـك النوم بينما تقود السيـارة، ورأيت متجـرًا هائلاً مكتظًا باللوحـات، والصـور والتماثيـل وأنصـاف التماثيـل، : «للدليل المرشـد» و«المنقذ» و«أبـي الأرض»، هيئة صلبـة، ذات رأس ضخـم، وفي أشكال متعددة بكامل الأبهـة والهندام الذي استوحاه قانون يدلـل على غبائهم المفـرط كثمن قامـوا ببذله، على صهوة جواد مرتديًا زي جندي الدرك، وبحوذته سيف لامع.

يشير إلى مستقبـل مشرق، وتنطبع على محياه دلائل الصرامة والنفاذ الجديرة بشرطي ينظم سير المرور. يرتدي بذلته الرسمية تعلو رأسه قبعة طويلة، فيوحي سمته بهيئة الساحر أو المخادع.

يرتدي بذلة «ابسموكينج»، صديري مُنَقَّش، وياقة قميص على هيئة جناحي طائر، مثل معلم رقص يدهن شعره بالفازلين. تزين وجهه عيناه الزرقـاوان المتأملتان، وحاجبـاه الكثيفان مثل خبير التنويم المغناطيسي.

يبدو مثل أينشتين في معمله للبحوث العلمية، بينما يداعب فتاة مراهقة، بريئة، شقراء، باسمة، مفعمة ببهجة سماوية.

منكبًا على خريطة لميدان المعركة، يشير بإصبعه المسحور إلى نقطة ضعف قوات العدو! آلاف اللوحات المنزوعة من المكاتب والإدارات المركزية الرسمية، عدد لا نهائي من التماثيل التي أطيح بها من المتنزهات والشوارع، تماثيل نصفية، العديد والعديد من التماثيل النصفية التي أجبرت بالقوة على البقاء هامدة بلا حراك. رؤوس عظيمة كسا جفونها وأنوفها التراب، واصطفت تشغل آلاف الهكتارات في متاجر ضخمة، ومستودعات مهدمة. أنهكك كل ذلك مع التأثير المتضاعف اللانهائي لنظراتهم المتوهجة وأوضاعهم الشاذة.

تجول وسط الغابة بعض الأشباح المعروفة ما بين قواعد التماثيل الحجرية ومنصاتها، تبدو هذه مقوسة الظهر ترزح تحت وطأة المديح المتملق المداهن، ودفاعها عن حقيقة دامغة ذات أهمية كبيرة لمثل تجشؤ ذلك الفلاح الفظ الخشن الذي تصوره التماثيل. تبث مكبرات الصوت في هذا المستودع المشئوم، دون هوادة، قصائد الشعر والمديح لـ «دون خوسيه»، و«ماوريثيو»، و«لادولوروسا»، و«فيذيليو»، وفي الوقت نفسه تتظاهر تلك الأشباح، من دون طائل بالفرار منهم برفرفات متخبطة وتكتسى وجوهها بملامح الإعياء.

(أتحلم؟ أما زلت تحلم؟)

فلول من الحشرات المحتشدة، تصدر جلبة متواصلة، تمزق، تحـرق، تهدم، تحطـم، تفتت رمـوز العبقرية لـذرات، تحرق وثائق الهوية وبطاقات الأحزاب.

السيارة الـ لادا (أم أنها سيارة DKW العتيقة؟)

تتفادى من خلال حركات ملتوية مجموعة من السائرين نيامًا، فتبـدو كأنها ترتفع فوق الطريق السريع الذي تظهر وتختفي خلال عبوره، في الوقت نفسه تُمحى من فوق الأرض كأن الأمر محض سراب.

قالت له: لا تخف. لم نتحرك بعد. حتى اللحظة لم تعتد الوضع. هـذا ما جرى لـي في البدايـة، لكن بعد تعـود العيش فـي الظلام والوحـدة، خلت أنني ضائعة، وفجأة صـرت قوية وهادئة، على الرغم من أنه لم يكن لديّ أيّ أمل في هذه البهجة.

(أنتما في هذه البرجولة أو هذا الممر الريفي المعروش الملاحق للسحاب، بينما تكرر هي وبشكل آلي إشعال سيجارة لا وجود لها، تشعـر بهذه المفارقة التاريخيـة، وتبتسم لك فيما تلوح على وجهها نظرة مرحة خفيفة للتواطؤ الذي جمعكما).

انظر! انظر هذه الموشورات الزجاجية.

ستقدر من خلالها على ملاحظة نعش ضيق قوامه اللهب، قافلة مـن النساء والرجـال العرايا جميعهم، خيطـت أجفانهم بأسلاك، شجـرة مقلوبـة رأسًا على عقب، جذورها ضاربـة في السماء فيما تتدلى فروعها صـوب الأرض، حية طويلة يوازي طولها مسيرة شهر.

سيدة تحمل مظلة، ترتدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشّـى بالدانتيلا والشرائـط الكبيرة، تتحلى بعقـود من الخرز، ميداليـات وأحجار كريمة، جوارب بيضـاء، حذاء ذو كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة، كانت تتجـول ما بيـن الدرابزين المكسـو بالطحالـب، وأصص زهور الأرطنسية.

(من هي؟ ألم ترها قبلاً في مكان ما؟)

على حين غفلة، تدرك أنك فقدت التواصل مع من يختبرونك.

هذا الكشف ينبهك، إلا أنها تعمل على تهدئتك في اللحظة المناسبة بنظرتها المائية الرائقة.

الزمـن لا يجري هنا مثلمـا كان يجري فـي الماضي؛ لذلك لن تلحـظ مـرور الساعات أو مـا يشابه. فهناك يتحدثـون عن الأيام والأشهر والسنين، بينما اللحظـة هنا قد تخلد بيننا خلال المساءلة.

الأمر لن يعدو قيامهم بتشغيل الفيديو فيعيدوا للحياة فصولاً ومشاهد من ماضيك.

تختلط رؤية الجسر الجوي البراق الخيالي بمشاهد الجلبة، الرعب، وصخب الضوضاء، والأصوات الحادة، وبتساقط مستمر وبطيء لرذاذ مطر ذراته من النيران الملتهبة.

(هل كنت تحيا بينما تحتضر في ليلة الوحدة؟)

مثل شيطان أعرج وقف ثابتًا عند المنحدر الرأسي للجبل، الذي سيصبح وفقًا للأحاديث، واحدًا من حدائق الجنة، أو سيتسلق مئذنة من المآذن الملاصقة لضريح السيدة التي احترقت بالحب الصافي، تراقب المدى الشاسع الممتد، يضم القباب، المقابر، البيوت، الأركان، الزوايا، المدارس التي جلت بها منذ سنوات مضت، لتآلفها تسرقك رغبة فطرية جامحة لعشقك التجوال. غمر المشهد الآن ضوء القمر، فبدت عليه مسحات الجلال، والسلام والهدوء، بينما القاطنون وسط المدافن في غمار سكون مطلق متشبع بالسكون والبركة. تُرى هل تمثل جزءًا من باقة الأشباح المارقة، كالثريات المستسلمة للذكرى والحنين خلال فترة الأربعينية؟ هل تقرر السفر وتحلق معها من الجامع وشرفات القلعة صوب أديرة الدراويش بالمقطم؟

تفتتين الهواء الصحو المنعش مثل الشهاب أو الطائر، مندهشة بالخفة والرشاقة اللتين تختصين بهما، ترتفعين فوق أفنية مكسوة بالبلاطات الموشاة بالآيات، مقابر شيدت عليها الشواهد، أروقة حزينة بالقيشاني والنقوشات الكوفية. أهي غريزة رقيقة، أم هو الوجود السري لعضو مُنح ملكات التوجيه والتوازن، إلا أنه يسبب لك شعورًا عنيفًا بعدم التوازن، وثمالة منتشية لفرط السرور؟

الطيــران بالقرب مــن المقابر المغطــاة بسعف النخيــل، وأطباق الحبــوب وأوان فخارية تحوي ماءً، يهبك في الوقت ذاته السكون المتوجســ لشخص يتزهد في فضاء مقدســ خصص للخلوة الذاتية والحــزن، و وعلــى الرغم مــن ذلك، فإنه مشبــع برحمة غامضة وراسخة.

إنك وحيدة، تسيرين من دون صحبته في جولتك الليلية بالمدينة الصحراويــة. تجــاوزت في مراحــل متتابعة الجفــاف الروحي، الظلمات، الكــرب، المتناقضات، الكرب الدائــم، القلق الداخلي والخــراب المناوئ، كل هــذه المراحل التي حدثــك عنها «الدليل الروحــي». هل أصبحت إيمانًا خالصًــا بلا صورة، بلا شكل، بلا هيئــة، غارقة في عدمك، عائــدة إلى نواتك؟ تــرى لماذا هجرك المحققــان في سرداب حجــري من الجرانيت مسقــوف بقبة، من دون أن يكلفــا نفسيهما مشقة تثبيت حجــر الشاهد الذي يغطي السلم الضيــق شديد الانحــدار؟ هل كان ذلك سهوًا منهمــا، أم فعلاه عن عمــد لا ختبــارك؟ أم ترين أنهما أرادا منحك هدنــة لإقامة الأمور وبعث الذكرى؟

كيــف يتسنى لــك الحديث على بعــد ألفي كيلومتــر، مع مجمع الأشبــاح من طفولتك وعائلتك؟ أم تنتزع عنها الحياة وتتحلل بغتة فــي العدم، أب مفقود استعاد نفسه تدريجيًا في مكانه المتواضع في

المدينــة، جدود أشرت إليهــم، وقد سلطت عليهــم حزمة ضوئية كاشفــة. قاسية، قبل يــوم البعث المشهــود، مرتبطين في مخيلتك دائمًا ووعيك بمشاهد كنائس تزينها أرباب حجرية، وتماثيل وهمية تكسوها الجروح، عــذراوات يدمين، طقوســ باطلة، احتفالات تعميد عقيمة، أحاسيس ميتة. هل ستعود في هذه الآونة لتقلق رفاتهم وتحــرك عظامهم، وتعرض لأطياف لوحــة خربة تصور البؤس الإنساني حقد الأشقاء بعضهم لبعضــ، تلك الثمرة المريرة للبذرة التــي زرعت في الطفولة؟ أهي ذكريــات خائنة للسلام، والحب، وهناء الأمومة، وجميعها كانت تحاصر قرينك أو من صار قرينك عشيــة اليوم الذي هاجــرت فيه روحه؟ ألم تكفــر عن كل ذلك في مقهى صغير بــ «الكاثابا»، ثمنًا زهيدًا دفعتــه مقابل قطعة صغيرة من معجــن؟ وبالرغم من ذلك، تظهر الذكريــات مجددًا، وتبذل قصــارى جهدها لتحقق ظهورها، مثل الصــورة الباهتة في لوحها المعدنــي الرقيق أو لفيلم خلال عمليــة التحميض، ممحوةً بلا شكل في البداية، ثم واضحــةً وجليّةً بعد ذلك ما بين كتلة الأشباح عديمة الشكل، بعد طريق طويل من الجسور المنزلقة والشاقة، والعقبات الضخمة ومنحدرات. وتطوق منــازل التكفير المتوهجة الضاربة للــون الأحمر؛ هي في عنفــوان شبابها، التقطــت لها بحب صورة جانبيــة، أو أخرى بملعب التنس وقد أمسكت بمضربها، وهو مثلما

تتذكره فــي الأوقات الأخيرة، تبدو عليه علامـات السن، حزينا لترملــه، ومرضه وتدهور مشروعاتــه العلمية التي أجهضت على نحو مؤلم.

ألــم يعانيا أحزانًا لا توصف لــدى خروجهما من مينائهما الآمن وإطلالتهمــا الخاطفة علــى بحر العالم، في إجابــة لندائك؟ أهناك عتــاب أبكم في عينيهمــا، أم شكر مفهوم ضمنًــا لرغبتك في حوار أصبح مستحيلاً، بينما يتلاشيان في الضباب عائدين إلى مخدعيهما المتوازييــن في مدفــن العائلة القديــم؟ وها قد حضــرت الجدة في شرودها المحبــب (أترى هل فقدت عقلها بسبب الجذب الروحاني مثلما أشار «ابن عربي»، وهــي شخصية تزن الأمور، لكن بغير عقل، أما زوجها «متقوقع دائمًــا يقرأ جريدة بتاريخ يعود لحصار ستالينجراد» بالرغم من ذلك فإنهما ينضمان إلى الموكب من دون أن يقومــا بتوبيخــك على نبشــ قبريهما، وعرضــ عظامهما على الملأ، وهو ما كان يجب أن يمكث في طي النسيان إلى يوم الرحمة النهائي. تظهر أشباحهم في ليل مدينة الأموات الصافي؛ الأضرحة التذكارية المزينة بالآيات، الشواهــد المكللة بالعمامات الحجرية، القباب المتقنــة، مقامات الدراويشــ، أبراج الحمــام التي تقطنها اليمامــات البيضاء، ضريح (سلطان العاشقيــن) مع المرسي الذي يتلو آيات الكتــاب. تحلق مجردًا في السمــوات الساكنة، تهدهدك

رياح تبدو كأنهـا تحيي بريق النجوم المتوهج، على أرض منزل حقير، بيوت مأهولة، طريق صحراوية ضيقة، أطياف تهيم ليلاً، تنفس ثقيل، واستشعار حياة مليون ساكن لبثوا في مساكنهم شياطين أشقياء مطلوقين، مقابر الشيـوخ، بيوت حديثة الطلاء برسومات الحج إلى مكة، مآذن مرفوعة مثل حراس يحمون النائمين.

(ابتعـدتْ عنـك، ومـن دون إرشادهـا القيم، تشعريـن فجأة بالجفاف وبأنك دون حماية).

وهنـاك بعض النوبيين يرتـدون جلابيبهم البيضـاء، وقد لفوا عمائمهـم بإحـكام على رؤوسهـم بمهارة، ينصبـون بحذر وهمة فـي أحـد الشوارع سرادقًا سيستقبـل أقارب أحـد الموتى، وبعد ساعات يودعون أربعين يومًا من الحداد، ما بين الزفرات الرهيفة ورشفات الشاي المتباعدة.

بعكس ما هــو مألوف في الأساطير، لم يكونـــا شبحين أسودين لهما منظر منفر مشئوم، أو هيئة مشوهة، وصوت هادر كالرعد، وعيون تلمع في ظلمات المدافن مثل البرق المبهر.

المطرقــة! ألم يضربا بهذه المطرقة الثقيلة التي يعجز عن رفعها البشر كافة؟

إذا كانت موجودة بالفعل، فلم لم يبصرها أحد في أي مكان؟!

ألم يعــان من ضربات هذه المطرقة علــى أم رأسه سبع مرات متتاليات، حين لا تكون الإجابات مرضية؟

جرت الأمور على نحو مختلف تمامًا عما تخيلاه!

ربما لــم يضيقا عليها بالأسئلة التي تخرســ لسانها، وهي مكبلة بمشاعر الذنب والهلع؟

لا، لا، هذا المشهد لا يشبه - ولو من بعيد - سجون محاكم التفتيش. فلــم يكن هناك أدوات وطــرق للتعذيب مثل الحبــال أو الإغراق في الميــاه، أو الصعق بالكهرباء، أو مغطســ أو أدوات للوخز، لم يكن هنــاك سوى فضاء ضيق وكئيب، أصبح شاسعًا وبلا نهاية، وتذبذبت الكلمات فيه مثل صفير حاد، يستحيل تحديد مصدره.

كانت تراهما؟

على الأرجح لمحتهما وسط الضباب، وبعد كل اعتراف، كانت تستشعر صفاءً وهدوءًا، بعد أن شفيت من إغمائها وهمومها وقلقها.

صوت نكير كان يتردد، حادًا وصافيًا في آن واحد، بما لا يدع مجالاً لأي شيء على الرغم من رداءة مكبرات الصوت. بينما جاء صوت منكر تشوبه نبرة لاهية، كأنه مشبع بسخرية أو بمعرفة دقيقة للصغائر الإنسانية. لم يحضرا ليقرآ عليها صحيفتها أو ليخضعاها لاختبار ما.

كانا متابعين لأقوالها وأفعالها، مطلعين على كل شيء من الألف إلي الياء. حتى إنهما شقا على نفسيهما بقراءة أكوام وأكوام من النصوص وأطروحات الدكتوراه صاغها باحثون، بعضها نافذ الفكرة، والبعض الآخر شديد الجهل، ولم يغفلا قراءة النصوص السقيمة لأعدائها. ضحك منكر وقال: يا لها من أكوام لعينة. كيف لنا بعد ذلك أن نتهمها بمعتقدات خاطئة، مارقة، بغيضة، فاضحة، ذات وقع سيئ؟ وسط رتابة الأوقات البائسة الموحدة الغثة الخاوية من أي محتوى، أصبحت حياتها نصًا مكتوبًا، لكن لديها ميزة ما، ألا هي العاطفة الآثمة، والقدرة المادية على التخيل وأيضًا على الحماقة.

أكان هذا هو كل شيء؟

ماذا بالإمكان أن يقال الآن!

فحينما أنصتت إليهما، شعرت أن أحدهما، بل ربما الاثنين، كان يمدها بنيران ناعمة مصدرها شمعة، لهيب يمنحها منتهى اللذة، تتراقص ألسنته في كل مكان فتحول الانعزال والصمت اللذين أعقبا مرحلة المرور إلى عذوبة خالصة. وماذا بعد؟

استيقظتْ، نظرتْ إلى مشهد الفراغ الشاسع، بدا المشهد كأن من يعرض الفيلم قد أوقفه برغبته الشخصية، أو بناءً على أمر من رئيسه. حينها ظهر «ابن عربي»، وعرفته على الفور لحسنه الفريد الذي يشع منه، حاملاً مخطوطه وعنوانه «رسالة في شجرة الإنسان والطيور الأربعة». دعاها لكي تتبعه، رآها عاريةً، على أهبة الاستعداد، خفيفةً ونشيطةً.

خلدتْ إلى النوم مجددًا، وسمعها تهمس في أحلامها:

شربت ميراث الكمال الناصع.

(امتد بصره عبر الميدان، فضاء الميدان... نُطفي ومحدد، انغمس في تأمل جلبته وحركة الجماهير، تشكيلات الجماعات التي تتكون وتنحل في ذاك المحيط مثل كيانات شاردة متفككة. ترى ما عدد الأيام والأشهر و السنين التي بقي فيها منغلقًا على ذاته في هذا التأمل، يجيب عن تساؤلات أصدقائه بلا مبالاة، غارقًا في سكون ونشوة مبعثهما صمته الداخلي؟

-6-

«هذا، هـو ما كان»، قالت وهـي تنشطر عـن جسدها الساكن علـى عرض السلـم، تنهض بسعادة مشوبـة بالرضا لتوقف الألم القصيـر بضلعها الأيسر، الأزمة القلبيـة التي أودت بحياة شقيقها، واعتبـر الحدث العقاب الأزلي لعائلتهـا، انفصلت عن نفسها، عن مظهرهـا الشبابي، مرتديـةً ملابسها الرياضيـة، اعتمدت بإحدى يديهـا على درابزين السلـم، كأنها تبحث عن دعـم كيلا تسقط في لحظـة العبور، وقد تكيفت مع خفتهـا، مالكةً غير مرئية لمجموعة مـن الكتب خـلال عدة ساعـات، وللأثاث والذكريـات والصور التـي اشتملت على أرقام في حياتها، مالكـة لعديد من كتب الأدب الإسبانـي كانت بصدد ترجمتها، حتـى إن الآلة الكاتبة ما زال بها ورقة عن الشاعرة «سور خوانا أنس دي لا كروث».

تسببـت وفـاة أخي فـي شعوري بالوحـدة والعزلة، لـم أنجح في اعتياد الوضـع، كنت ألوم نفسي بقسـوة لعجزي عن الحيلولة دون وفاتـه، لكنني لم أنجح في التكهن بذلـك من خلال ذلة لسان أو بعض البوادر البسيطة الدالة على المرض إلى أن فارقني على هـذا النحو المباغت فسقطت في بئر حالكـة الظلام، وتحطم كياني الداخلي لجهلـي المطبق عن ذاك الكشف، مـن دون أن ألمحه أو ألحظه وكانت قد انتهت ليلة الكرب الضيق.

لـم يخالجنـي مثل هـذا الشعور فـي أي من مراحـل الانكسار والجفاء والانعزال عن العالم، الهروب من تبدد الروح، حتى ما بين أسوار مستشفـى الأمراض العقلية، لم أشعر قط بهذا الشعور: عارية، مرفوضة، محطمة، من دون سند وبعد إخفاقاتي العاطفية، بعيـدًا عن ذاك الضـوء البسيط الـذي اعتدت رؤيته فـي عينيك، والرغبـة الملحة في الشراب، والوصول إلى لحظة الإشراق سعيًا نحـو نشوة الثمالة المبتغاة، وصلت بعد ذلـك إلى شقتك، وأنا ثملة بعض الشيء. لم أدرك فـي ذاك الحين أن نشوة النبيذ كانت تعلن عن بحثـي العشوائي عن حالـة النشوة الصافيـة. واكتشفت الأمر بفضلـك أنت، من خـلال الصوفيين وعالمهـم الروحي. عجزت عن الإقلاع عـن التدخين، عن ملء مطفـآت السجائر في منزلك وتعبئـة حجرتك بالدخان، كنت على درايـة أنك تقدم لي الشراب بينما تشعر بحزن، خائفًا، ولديك الحق، في أن يغيب عقلي، وأن أنفصل عن الحياة وجوانبها الاجتماعية.

كنـت أجهل أن أخي قـد سبقني ببساطة إلـى الخفة. غرقت في الألم، شعرت بدوران الهاوية. قلت لك: لا أستطيع مواصلة عملي معـك. ابحث عن شخص آخر أكثر ملاءمة واتزانًا. ذاك المساء، حينما شعرت بمساعدتـك، رأيتك في منامي تمد لي شمعة، تسطع في جميع الأرجاء، نارًا ناعمـة، أتلقاها منك بسعادة، كأنها طعام محلي قوي المذاق.

خــلال الحوار الذي تبادلنــاه، شق عليّ التمييــز بين من يسأل ومن يجيــب، من صوت «يقـول»، ومن صـوت «أقـول»، مَنْ يتحـدث بصيغة «هو» ومَــنْ يتحدث بصيغة «هــى». التفريق بين الجنسيــن، ألا تلغي تلك الفروق في إطار هذه الخفة؟ وماذا سنفعل بقواعد النحو؟ لماذا نلجأ إلى ضمير «هو»، وليس «هي»؟

جعلــت تضحك وتضحك من جديد، بينمــا تلهو بالسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصــورة، تطالعك من مشارف السحاب، على مــرأى من الأشباح التي تنتظر بالمثل نهايــة الأربعينية، مطمئنين تملؤهم الثقة في العفو والرجاء.

قالت:

أترى جيــدًا؟. إذا كانت الرؤية مشوشــة أو مضطربة بإمكانك ضبطها عن بعد بواسطة الجهاز المبرمج.

في عتمة المقبرة في أعقاب صعودك إلى درجات سلم العري، متجهًا صــوب السلام الميمون، بمنأى عــن خير الزمان والمكان والزمــن، ومن دون أن تلتفت إلى مــا تفعله، من دون أن تدرك هــل أنت مقيد أم لا، أقادر على الحركة والفعل أم لا، من دون أن تلتفت أو تهتم لتعليمات كتاب «الدليل» فيما يتعلق بمواد الإحساس، تستقبــل بسلبية تدفــق الصور القاسية على الشاشــة، ساكنًا في حال تجمع ما بين الهدوء والصمت.

تتأمل المشاهد واحدًا تلو الآخر بالترتيب.

تنظــر إلى رجال ونساء تقطعت شفاههــم عند جوانبها، أصيبت عيونهــم وآذانهم بسهام حادة، علقوا مــن أرجلهم في اتجاه عكسي وتدلت رؤوسهم نحو الأرض، ولدغتهم الأفاعي في كل مكان.

تنظر إلى الجلاد، رجل يرفع بين يديه صخرةً ضخمةً يسحق بها جمجمــة شخص بائس، ومن دون أن يمهله دقيقة واحدة ليرتاح،

يباغـت رأسه بالضرب مرة أخرى بعد أن تتشكل بمعجزة مجددًا، مواصلاً تعذيبه الفظ الصارم.

أمواج نهـر الدماء تغلي ويسبح بها منبـوذاً محروماً من رحمة الله، يجاهد؛ كـي يصل إلى ضفة النهر، حيـث يقف جلاده يقذف بجمـرات ملتهبة في فمه وهـو متقطع الأنفاسـ، ويأمره بمعاودة السباحة في هذا التيار لمواصلة العذاب.

موقـد أنبوبي الشـكل، يتأجج في نيرانه رجـال ونساء عرايا، يصعدون ويهبطون وسط برادة المعادن المشتعلة، وفجأة يهبطون للقاع، وهكذا دواليك، وسط الصراخ والأنين وصيحات الرعب.

مخلوقـات متورمة، متشنجـة، يتقيؤون مـن دون توقف من عيونهـم وأنوفهم وأفواههم وآذانهم، ألسنة اللهب الملتوية تخترقهم من الدبر.

محيـط هائل مشتعلـة نيرانه، ينقسـم إلى سبعين بحـرًا، على شاطئ كل منها ترتفع مدينة متوهجة، ضارب لونها إلى البنفسجي، مؤلفـة من سبعين ألف بيت، تضم بدورها سبعين ألف نعش تشتعل بها النيران، يختلط فيها رجال ونساء يتضرعون طلبًا للرحمة فيما تلدغهم الثعابين والعقارب.

أترى هـي صور للوحـات «بوسكـو» أم أنها نسـخ ملونة من

أعمـال «دوري»، كنت تتأملها مرتعبًا وأنت محض طفل صغير؟ ألم يستلهم الفنان الفلورنسـي، بجرأة، رؤى داخلية مستوحاةً من «كتاب المعراج» في أثناء تأليفه كتاب «الكوميديا الإلهية»؟

قالـت: إذا كان الموضـوع يضجـرك أو يشعـرك بالخـوف فبإمكانك تغيير القناة.

إلا أن البرنامـج كلما انتهى يعاد من جديـد، ولا تستطيع معرفة السبـب أهو أمر محتوم بسبب عيب تقني؟ فكلمـا انتهى العرض يبدأ مرة ثانيـة، فتظهر على الشاشة خلال تحـرك الظل الناعم، صور المعذبيـن طالبيـن المغفرة، بشفاههـم المبتورة ومقـلاة أعينهم وقد اخترقتها الأسهم، معلقين من رقابهم، لدغتهم الثعابين في كل مكان.

قالت المرأة حاملة المظلة بالفرنسية:

Oh, Comme ils sont emmerdants! Ils ne peuvent pas s'offrir comme tout le monde une antenne parabolique?[1]

يبـدو كأنهـا اختفت، مـن دون أن تحـاول إشعـال سيجارتها المتخيلـة، أو حتى تستحثك وتمنحك بصيصـ ضوء عينيها الملونة

(1) يا لهم من «مقززين» إنهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم كالجميع طبقًا هوائيًا. (المترجمة)

كملجأ وملاذ. انطباعات ما بين العتمة والصفاء، التخمة والرقة، تسبق جميعها اقتحام صور جديدة لحراس غلاظ، نظرات تطلق ألسنة لهب، مدن تلتهمها نيران داخلية، بيوت للتطهر والألم، شكلت المشهد رغبة جامحة تهذي في هيئتها المتماثلة.

هوة في شكل خادع أو جزع شجرة صنوبر مقلوبة تنحدر صوب مركز الأرض؛ من خلال تسعة مستويات أو طوابق دائرية مثل العقاب والسجن وفقًا لدرجات الأرواح المنحرفة الخبيثة، قيود نارية ملتحمة بتكتلات الضحايا، أفاعٍ تتسلل إلى الأفواه، وتخرج من فتحات الشرج بعد تدمير الأمعاء، مخلوقات بلا عيون تسبح في أنهار الكبريت، رجال بطونهم مكتظة بالزواحف، ونساء معلقات من شعورهن أو أثدائهن في عقافات ملتهبة كالجمر.

دواب متوحشة لها رؤوس كلاب وأجساد خنازير، يعانون من عطش رهيب، فرض عليهم احتساء أكواب من المعدن المنصهر، ألسنة قطعت بمقصات متوهجة، تخترقهم سهام وتضربهم أسواط من نار، أرواح تعتصر وتدمر من قبل ملاك متمرد يصيح من الألم فوق مرقده على مشواة.

وفجأة وبالتعليق باللغة الإنجليزية تظهر، صورة فتاة شقراء ذات ابتسامة ساحرة وصدر مثير وبشرة لامعة كالصدف، تشطف شعرها الغزير تحت ماء الدوش، تبدو عليها سعادة نرجسية غامرة

تـكاد تصل بها إلى ذروة النشوة الجنسيـة، وذلك بفضل الخواص التجميلية التي يوفرها الشامبو، ذو العلامة التجارية العالمية، الذي تستخدمه.

هل قطعوا البرنامج التليفزيوني بهذا الإعلان الدعائي؟

وبينمـا تتساءل، مرتبـكًا، عمـا إذا كانت العلامـات التجارية العالميـة توجد في مقـرك الجديد، تهيأ لك كأنـك تسمع في الظلمة الحالكة ضحكة منكر الساخرة.

-8-

كان فـي مركزهـا، المنـزل والمتعة فـي أحشاء عالـم تنبض فيـه الحياة، يستدعي فـي الوقت نفسه أصواتًـا وروائح وملامح، وعلاقات؛ مـذاق الكبيبة وأوعية حساء الحريـرة، مستوعبًا تمامًا توحد أجزاء جسده وتنوعها، لمساواته الأساسية مع كتلة الأجساد، وأساس هدفه: الانجذاب، الرحمة والرغبة. مجتمع المصير الذي تتولاه في عري الميلاد ولحظة العبور، والعناقيد البشرية بجمالها الأخاذ، والبريق الذي يختفي بغتة.

أكانـت الشيخوخـة أم الإرهـاق هـو ما أبعـده شيئًـا فشيئًا عن منطقـة الأرض المستنفرة، أم ترى أنـه الإيحاء الحزين باستنفاده حيويتـه الأصيلة الصافية في الكتابة؟ الحـق أنه غادر في الحلقات الدائرية ذاتها، ترك بدويتـه الغريزية؛ لكي يقف عند زاوية قرب أحـد المقاهي ليترصد المشهد من هناك. هـل أراد أن يضع مسافة بينـه وبين الآخريـن؟ أم يفرض مسافة تباعد ما بيـن ذاته ونفسه؟ أم أنـه اليقين المفاجئ بعدم ثباته، أيضًـا الوهن الشديد لما يشعر به كأنه شيء قريب، في حين أنـه بعيد وصعب المنال؟ أصبح مجرد شخص يتأمل ما حوله من إعصار الجماهير السائرة، المتدفق بين البائعيـن الجائلين، النصبـات المظللة، المطابـخ المتنقلة، البسط البلاستيكية وعليها البضائع الكثيرة المتنوعة. هل هذه الأجواء التي ألهمتـه شعلتها المضيئـة قُبلاً قدر لها أيضًا الاختفـاء والزوال؟ هل

سيمحي مسرح الأضواء والظلال والكوميديا الخصب الذي طالما غذى روحــه وحياته وروحه الإبداعية الشرهــة؟ هل سيمحي كل ذلك بلا رحمة؟

تقدم خطوة أخرى، عرج إلى منزله المجاور للميدان، بناظريه مــن شرفة سطح المنزل، ألقى نظــرة فاحصة يتأمل الكتلة البشرية الملتصقة، فما زالت الحياة تنبض، ولم يحل الإفناء والفناء.

يصــوب منظــاره الموشور على رأســ الصــاروخ الأملس، وعلــى الدائرة المتحلقة حول «الشرقــاوي» وحمائمه المستأنسة. ظلال كثيرة تمدها سحب هائمــة، تدفعها نسمات رقيقة نحو ظلال أواخر الجوالين، أطفال متقافــزون، أطباء ألهموا العلوم الربانية الفطريــة، المقرئــون يتلــون التعزيمــات، البصــارون، الرواة المنشدون، حواة الثعابين والراقصــون المبتسمون. خيط رهيف كان يربــط بعالم الأشبــاح البعيد المهدد من قبــل كتلة مضغوطة، سيحجب صوتها تدريجيًا الأصوات المتداخلة، حتى صوت مؤذني الصلاة المنبعث من الجوامع المحيطة بالميدان.

وفــي السابــع عشر من شهــر يناير، تلفــح بغطاء ليتقــي البرد القارس، الذي تسوقه رياح التــلال الثلجية فلمح في محيط بصره صوب المشهد الخالي الصحراوي. وصول العربات الأولى التي تحمل جثث الموتى.

أتت من دون دواب تجرها أو حوذيين يدفعونها، من «باب الفتح»، «سمارين»، «رياض الزيتون» و«محمد الخامس» في التوقيت نفسه، كأن جهاز تحكم عن بعد يقودها، أو قوة خارقة تدفعها. بدأ يعدها بالآحاد ثم العشرات، بينما تتقابل في نقطة الوسط؛ لتفرغ حمولتها، أكوامًا ضخمة من الأجساد المخلوعة أو المتيبسة، أفواهًا نصف مفتوحة كأنها ستصدر صرختها الأخيرة وعيون جاحظة من شدة الهلع لم تكلف نفس رحيمة واحدة نفسها تغسيلها ولفها في أكفانها، تغمض أجفانها، تسد آذانها وفتحات الأنف بالقطن، وأن تربط الساقين والفكوك بشريط، وأن تشبك الأذرع في وضع معكوس فوق الصدر بشكل جمالي، ولا جعلتهم ناحية اليمين بحسب التعاليم الإلهية. شيئًا فشيئًا تحول فضاء الحلقة ومقايضات البيع والشراء بين المترددين عليها إلى جمعية من الجثامين، يتزايد عددهم باطراد دقيق وآلية العمل في سلسلة مصنع ضخم، مثلما هو الوضع في أسطورة التعميد. هل كان الوضع استدغاءً لـ «المساء والضباب»، محفورًا للأبد في صور قصيرة متتابعة لأجساد مكبلة الأيدى، رصاصات في أسفل الرأس، صدور اخترقتها الرشاشات، ضربات بالسنج باغتت الظهور، وجوه شلت حركتها الغازات السامة وقنابل خفض الضغط، فحفرت على تلك الوجوه علامات الألم التي يصعب وصفها.

فقط عندئذ تنبه إلى موجات الفيضان الأولى، وهي تتحرك في سكون.

شلال مـن الدماء، كأنه فاض عن مستنقـع أو سد، جعل يتقدم في بطء من الشوارع القريبة مـن بنك «المغرب» ومبنى البريد، كسا الأرض باللون الأحمر، فيما تكومت أهرامات الأجساد لتدفق سيـارات الموتى. تذكـر حينئذ: «من يقدر ولـو بكلمات فضفاضة الحديث عن هذا الكم من الدماء والجراح، وإن حاول بشتى أشكال الحديث؟».

فاضـت ميـاه الشـلال، فغمـرت موقـف السيـارات وشرفة «الجلاسيني» ليصل أعلـى فأعلى. أترى من أي شرايين وأوردة ضخمـة تفيض هذه الدمـاء؟ أهم المعوزون من «بـن سودة»؟ أم متظاهرون فـي شوارع وهـران اخترقت أجسادهـم رصاصات البنـادق؟ أم هـؤلاء المساكيـن المحتقـرون المهانون فـي أحياء القاهـرة الشعبيـة؟، أم شُهـداء صبرا وشاتيـلا؟، أم تلك الأمهات اللائي فاجأهن القصف في بيروت بينما يتبضعن؟ أم الأطفال قاذفو الحجارة في كفر مالك؟ أم هؤلاء القرويون الذين أبيدوا في حلبجة، أم أطفـال متكومون في جحيـم «الشطي»؟ أم أنهـا كانت ببساطة قـاع نهري دجلة والفرات، التي تصـب بعنف في مدينة «الرجال المقدسون السبعة»، فيما تفيض الحدائق والأسواق والطرق؟ نظر

إلى الكتيبة واكتشف على سارية العلم المرفوع في إشارة للصلاة قميصًا يتموج ويتأجج، مشرب بالدماء. أترى أي ملاك غاضب أم رسول للموت وضع هذا العلم هناك؟ من مكانه في برج المراقبة أدرك دون الحاجة إلى منظار معظم مقدرة الذروة الخطرة للفيضان، بينما فاضت مياهه على البازارات المجاورة. لتجرف معها البضائع والأشياء. فهل غمرت المياة فندق «دي فرانس» عن آخره؟ هل انحرفت ناحية الناصية باتجاه رياض الزيتونة ولا سبيل للحيلولة دون امتدادها؟

سمع اندفاع المياه الذي عبر الطريق الضيق، ورأها تصبغ بالحمرة مدخل دار سينما «عدن»، كأنها قطيع بقر يخور منطلقًا في متاهة الشوارع الضيقة المفضية إلى منزله. هذا الصخب الذي يضاهي مثيله للمياه الجامحة المندفعة عند بوابات السد، جعلت تصعد متوعدة بوحشية من بين جدران المساكن. هل اختفى فجأة جميع السكان بالمدينة؟ ألم ينتبه شخص غيره لهذا الفيضان الدموي؟ هيأ سمعه انتظارًا للصرخات والبكاء، وهباءً حاول رصد علامةً تدل على الحياة. انفجر الشلال والفسقية الصغيرة! ألم يشك أىّ ساكن في المنزل في المشهد الذي رأه؟ أسرعوا جميعا، على عجل، أمسكوا بالخرق والجرادل وشكلوا سدًّا ملتحمًا للحيلولة دون صعود شلال الدم على السلالم. ألا ترون أنه على وشك

الدخـول إلـى المكتبة وإغـراق الكتـب؟ حاولوا إنقـاذ المسودات ومخطوطـات هـذا النصـ، النصوصـ الصوفيـة الإسلاميـة، المسيحيـة، العبرية، مجلدات «دانتي»، «ابـن عربي»، «الدليل الروحـي»، «كتاب المعـراج»، لا تسمحوا لـه أن يغطي ويمحي تعبيـرات الذكاء والعاطفة الإنسانية، لا تسمحوا بإلغاء سر الكلمات الأساسية. أكان يهمس لنفسه؟ أم أن نفسًا مخيفة كانت تسمعه؟ لكن أصبـح كل شيء أحمر اللـون، بداية من السمـاء الخمرية بسحبها المتكاثفة الأرجوانية، يهطـل مطرها بغزارة؛ فتتفجر قطراته مثل الفاكهة الناضجة فوق العلامات الخطرة التي خطها بنفسه، أوراق المخطوطـات المتبعثرة مـن عمله الذي لم ينتهِ بعـد، بينما غمرته المياه بالكامل.

أمهله الوقت لحظات قصيرة ليطالـع ديوان شعر بين يديه فقرأ «خفف الـوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هـذه الأجساد». قبل أن يغرق فـي دوامة نحو.فيض الدماء، والموتى، وملاك الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات.

-9-

أكان هاجسه بتقدم عمره هو ما دفعه لاستعراض صور الأماكن الأجمل التـــي عرفها في حياته، يسيطر عليــه القلق والحزن لشيخ خــرف يهوى جمع التــذكارات والتحف، قبـل أن تختفي هذه عن نظره بأمر من بارئه؟ أم لعـل وهن السنوات الواضح في حركاته غيــر المؤهلة وتحسســه كالأعمى، عندما رأى فــي ذاكرته، حين أدار قناة التليفزيون، المــدن القديمة التي أحبها، قد تغطت بأكوام الخــردة والحفــر السوداء، بينمــا تنبح الــكلاب البوليسية للإعلام بحبور؟ ها هــي عاصمة هارون الرشيد المحببــة العائلية. الأعداء مذعورون مثــل الصراصير لحظة إضاءة نور الحجرة، يدهسون في تشتتهم المجنون رعبًا من غضب المهلك.

قــرر الهروب من هذه الأجواء غير المحتملة، من ملامح اللوم الصامت للكثير من الوجوه المرتعبة، من الشعور بالذنب الذي ظل يعذبــه. بالرغم من كل ذلك، استقــل سيارته الصغيرة وانطلق في أقصــى سرعة في طريقه للجبال المكسوة بالجليد عبر طريق تتخلله أشجار الصبار واللوز المزهرة. هناك القليل من المارة والقرويين الجالسين القرفصــاء، أطفال رعاة مرتعــدة فرائصهم من البرد، كأنهــم خيالات مآتــة، أترى هو الحصي رمى فــي طريق سيارته المتهالكة الصفراء؟ ماذا سيفكرون بشأنه غير أنه هرع إلى موعده بانضباط في سمراء؟ وصل إلى المدينة الصغيرة بأسوارها الوردية

وأوقف سيارته في الموقف الشاغر. وقف العملاق المهندم مرتديًا سترتــه وسروالــه المنقوش الأحمــر، يستقبل بحفــاوة - مثلما هو معتــاد- السائحين لحظة نزولهم مــن الحافلة، ولم يقف بمكانه عند البوابــة المفتوحة بين دعامات السور، وغفلت عربات البائعين في الممر المفضي للبهو، ومتاجر الهدايا التي كانت منتعشة قبل تعرض الفنون اليدوية، والبطاقــات البريدية أصبحت بلا حركة أو فائدة. كتــب البيانات في البطاقة التي أعطاه إياها موظف الاستقبال، ولج إلــى الحدائــق المهجورة المتخثــرة لأشجار الخيــزران والموز، والأشجار الغريبة، وتتابع الأفنية المزينة بنوافير صغيرة.

تجمعــات مائية للسلاحف، ومئات الغــرف الشاغرة، والخدم الكسالــى يتحركــون بمكر مثل الأشباح والمــكان برمته ملك لهم. جماعة من القطط الجائعــة، عيونها مثل عيون إبليس، رافقته إلى باب ملجئه.

وبعد ذلك مرت دقائق وساعات، بينما كان مستلقيًا في راحة في الوحدة غير المألوفة بجــوار البركة، استشعر تحت ضغط لا مثيل له سرعة الزمن الغاضب، غضبه الذي يلتهم الأشياء والمخلوقات: رياح الغروب، الحية الشديدة تهــز جزع شجر الكارانداي، تهز فروعها، تعقد وتحل مؤامرات السحاب الشريرة. أوراق أشجار المانجوليــو ولحائها تسقط فوق المياه اللامعــة المتموجة، المقاعد الشاغرة، الديكور التافه لعالم أبيد على حين غرة. ملئ رعبًا لدى

رؤية طاوس ذيله بديع، لكنه يهتز غضبًا. وماذا عن الطيران إلى سيمورج، هل أصبح كابوسًا؟

هرب وهرب مجددًا، إلى أماكن جبلية وعرة، بحثًا عن مخابئ وملاذات خفية، مدركًا أنه لا شيء، وغير قادر على فعل شيء، ولا يساوي أي شيء، تحاصره خيالات كئيبة ذائلة: مشاهد القرى المكدسة إلى جوار الجوامع، قرى مثل أعشاش الصقر، قطعان الأغنام الصغيرة تتداخل مع مشاهد شتاء نووي، أمطار حمضية، غابات متفحمة، مناظر محطمة.

أوقف السيارة عند إحدى التقاطعات، وأخذ يفك طلاسم الكتابة الممحية على اللافتة:

«طريق بلا مخرج»

أيستطيع أن يعود أدراجه للسير خلفًا؟

محيت آثار الطريق خلف ظهره، واشتعلت السيارة المفككة كأنها أصيبت بصاروخ عدو.

وأبصر وسط هذه الجغرافية الخربة شجرة عملاقة، بدا ظلها مثل العطاء والهبة وسط الطرق الضيقة المعتمة والأزواج المشتعلة.

أهي النهاية؟

كانت تنتظره واقفة، وهي غارقة في النقاش مع السيدة ذات المظلة.

-10-

عبـر ت أماكن جافة قاحلــة وتحملت مظاهر الخــراب القاسي، وعانــت مــن استشهــاد الأرواح والآلام الباطنيــة التــي ذكرهــا المتصــوف، وبعـد مرورهــا بكل التجــارب، ولدت مجـددًا في رشاقتها ورقتها ونضارتها، ترتفع في فضاء غير محدد، توجد فيه في حالة من انعدام الوزن اللطيف الحالم.

«وبما أننــي لا أستطيــع أن أكون «بياتريث» التــي عرفتها»، قالت ذلك بلهجتها المتواطئة السعيدة، و«إذا أردت أن تزور جهنم سيكون من الأفضل أن تلجــأ إلى خدمات مكتب سفريات. وهناك سيعرضــون عليك كتيباتهــم المصورة، وبهــا برامج الرحلات، وسيضعون تحت تصرفك مضيفة تتحدث عدة لغات».

تضحك مجــددًا، مثــل الأيام الخوالــي، حين كانــت تنتظرك بالقــرب من باب الخروج ثم تذهبان لتواصلا نقاشكما عن شخصية الراهــب «هيتـــا» ومسرحية «لا ثيلــستينا» على المقاعد العامــة بـ «واشنطن إسكوير» أو بمقهى قريب من القسم. كانت تدخن مثل عادتها سجائر جاولويزيز الزرقاء.

في لهفة الشاعر ليتعرف إلى أصدقائه وأعدائه في دوائر جهنم، ألــم يدلل ذلك على مرض طفولي ولذة منحرفة؟ ولتضرب مثلا بـ «فيليبو أرجنتي» في النشيد الثامن.

من غير الممكــن وصف بشاعة الألم، بينما رجلنا الطيب، بدلاً من التعزي لمعاناة التعس، يتسلى بتأمله.

تنزلقــان بسرعة، كأنكما في ساحــة للتزلج على الجليد وتجذب هــي من حقيبتها نسخة «الكوميديا الإلهية» التي تحوي ملاحظاتها. ويــا للأسف؛ لأنها لم تدرج في فصولهــا دراسة مقارنة بينها وبين «المعراج» لـ ابــن عربي والتعمق في الحقل الــذي دشنه «ميجيل أسين بالاثيوس».

مفهــوم الرحمة الإلهيــة لخاتم القديسين لا يماثــل بأي شكل من الأشــكال مفهومها عنــد الشاعر الملحمي، وبالمثــل لا يستحق هذه القســوة والافتقــار للأحاسيس. هــل تتخيل ابن عربــي يكتب هذه الأبيات: «سيدي» قلت، «أتمنى بشدة / قبل أن نترك هذه البحيرة/ رؤية المتهــم يغرق؟» أعرف تمام المعرفــة أن أحدًا لا يقدر على الحكــم على عمل مثل «الكوميديا» في جمالها وتماسكها انطلاقًا من هذه التفاصيل، لكن يجوز الحكم على المؤلف من خلالها.

أنــت الآن داخــل ما يشبــه وكالة للسفــر رفعت عليهــا لافتات للوحات «بوسكو» و«ماء النار» لـ جوستابو دوري. وضعت على العارضــ قائمة أسعار للرحــلات المختلفة والجــولات السياحية. كتب بالفرنسية: «نقــدم لكم أسعارًا استثنائيــة»، تقول المرأة التي تحمــل الشمسية، بينما هي منغمسة بين الهواتــف المتعددة حولها،

«إنه عرضٌ رائع»، وعندما تضع السماعة يجيب الصوت على عدة مكالمات هاتفية في الوقت نفسه: «نعم.. غدًا، أرجوك انتظر قليلاً. حسنًا سأحجز لك الأماكن في لحظة».

وعقب حوارات قصيرة، تتخللها الزفرات والأنين،

لم أعد أستطيع

يجمع الرسائل المرسلة عن طريق الفاكس، ويفحص بسرعة شاشة الكمبيوتر.

تقول الموظفة بالفرنسية بعد أن نظرت أخيرًا لك - معذرة - كلي آذان مصغية.

تلتفت إليها طلبًا المساعدة، لكن تكتشف أنك وحيد: لقد اختفت.

على ما يبدو أن السيدة المتبرجة، كأن على وجهها قناعًا، مزججة الحواجب، جفناها مصبوغان، ووجنتاها مطليتان، بالمثل وجهها بمسحوق الأرز، بينما شفتاها مصبوغتان بلون قرمزي فاقع فيدو مثل قلب، أدركت عدم تركيزك فمدت مروحتها بدلال وغواية.

No vous inquietez pas! Une visite pri vee avec un guide vous eclairera advantage(2).

---

(2) لا تقلق، زيارة خاصة مع الدليل ستوضح لك الأمر بشكل أفضل. (المترجمة)

تحلـم أنك في متحـف كبير للتماثيـل الشمعية؛ مثـل التي رأيتها سابقًا حيـن زرت باريس ولوس أنجلوس. تعبر خلال ممر مكسو ببسـاط فخـم، وعلى جوانبه علقـت لوحات كتب عليهـا «صديقة الملذات» فضـلاً عن رسومات تبرز الجحيم لفنـان «الكوميديا». تفتقـر المضيفة التـي ترشدك إلى ملامح محـددة، ولاحظت؛ أنها تتعامـل معك بعجرفة واضحة، معرفتهـا الواسعة تصيبك بالسقم، فتتفحصـ التماثيل الثابتة فوق القواعد فـي محاولة لتتعرف وجوه معروفة لديك.

يتلـوى أحـد الأجساد المرفوعـة على خازوق حتـى اللحظة، ويبدو أنه يتحمل الألم بثبات وتكسو وجهه ابتسامة متشنجة.

التوضيحات التي تبـث عبر مكبر الصـوت يصاحبها سيمفونية مؤلفة من ضجيج كور الحداد، وهبات الرياح وأنين الغضب.

وهـؤلاء الأشخاص الذين يرتدون الملابسـ الفخمة، تكسوهم هالة مـن الحكمة والقداسة، هم المتابعون لـ «ابن تيمية»، و«تور كيمـادا» و«منيندث بلايو». لا يعانون من أي عذاب، سواء كان الكبريت المصهور، أو الالتهام المتواصل أو سهام نارية. فعذابهم نافذ وحاد. يتأملون داخل دوائر المجد من أدانوهم بالكفر والزندقة

والانحراف الخائن بسبب ضيق أفقهم: يزون المعلم الأعظم وخاتم الأولياء «ابن عربي»، «الحلاج» «البسطامي» «السهروردي»، وأتباع الشاذلية «المنورين المهجورين»، إلى رفيع المقام «ميجيل دي مولينوس»، إلى «دون خوسيه ماريا بلانكو». فيا لدرسهم الرهيب. اعتبروا فردوسهم أو جنتهم مثل نادٍ مقتصر على طائفة صغيرة وتجاهلوا أن الرحمة الواسعة لله الواحد.

(من الذي يتحدث؟ أهي المضيفة التي ترتدي الزي الموحد أم هو صوتها يتردد لسبب مجهول، بحذر وغموض في ظلمة الظلال؟ وهذه الشخصيات التي تلمحها على الحوائط، هل تشكل أيضًا جزءًا من العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا خفيفًا مثل الذي نبصره في الأحلام؟)

تستدعي بعض الشخصيات المألوفة اهتمامك. تفحصت حين ابتعدت عن الآخرين سيدة تضحك بمفردها، من دون أن تتمكن من التعرف عليها بدقة، كانت كأنها تحتفل بالانتصار في مؤامرة أو مكيدة سرية. وقف إلى يسارها صحفي شعبي منافس لـ ميداس، يحول كل ما تلمسه يداه إلى عمل فلسفي. وهناك أيضًا كائنات صغيرة تتحرك في مكاتب بحجرات أحد المنازل المعتمة مرتدية أقنعة ثعالب البحر.

«هلـم بنا»، قالت عبارتها في لهجة تهكـم لطيفة. لتقل لي الآن إنك لئيم ومهوس مثل دانتي نفسه.

هـل سيهمك بحـق الشيطان أن تجـد واليكريا المـرأة الليتوانية السمينـة مدمنـة الكحول، وهـي تكتب ملاحظتها عـن الكتب التي قرأتهـا في أقبية مملكتهـا المتلاشية المنهارة؟ ألـم تلفق أنت بنفسك إحـدى المخطوطات خلال حياتك؟ (هـذه الشخصيات التي تتأملها وتنتبـه إليهـا مرتبكًا، أهـي تنتمي إلى عالم مرئـي؟ ووجودها في المتحف مجرد عبث أم هـي رمزية وحسب؟ من أدرجهم في متن الظلال؟ أهو خيالك المنتقم أم حيلة حاكها منكر؟)

«هذا الرجل الثرثار الخبير في اللا شيء»، قالت المضيفة وهي تشيـر بإصبعها إلـى الصحفي الشعبي، أتعلم أنه لـن يؤثر في عالم الفكـر أو الروايـة أو المسـرح أو البحث، على الرغـم من إنتاجه الغزيـر الذي بذله في هذه التخصصات. وينطبق عليه المثل القائل « أيها الإسكافي، فلتعتني بأحذيتك».

لكن بما أنه يجهل هذه الحرفة، فلتقل له بطريقة مهذبة:

«أيها الفارس، فلتعتني بأحصنتك».

(أليست الطالبة في الفصل الدراسي التي تغطي بشرتها البثور،

وفمهـا مغلق بنوع من الأغلفـة أو كمامة تطهو فيهـا لعابها النتن، أليست إحدى شخصيات كتبك؟

لماذا تصر السيدة على أن تريك هذه الكتلة العفنة والمحترقة؟)

أترغب في الهرب من المتحف، والتحرر من ثقل هذه الزيارة الموجهة، لكنها تتوسل إليك ألا توقظ المضيفة بحركات أو إيماءات غير حكيمة.

تقول: تحلي بالصبر، ألا ترين أننا كائنان في حلم؟

عبثـا تبحثان فـي هذه الأجـواء والممرات المكسـوة بالسجاد، واللوحات على الجدران، عن أية لافتة تشير إلى الخروج

EXIT، AUSGANG, SORTIE, USCITA.

سيغلفكمـا الظـلام الكثيـف المصمت فـي المدفـن القبوي حين تهبطان إلى وحدة الظلال في محيط مدينة الأموات.

-12-

أتــرى هو توقع أم مجرد حدس واعد، أم الوله الشديد للطهارة الشعائريــة، أم الذاكرة أم بريق اللقــاءات السابقة؟ لست على يقين محــدد، ربمــا كان الأمر مزيجًــا من كل هذا، مــا يدفع بخطواتك إلى هذا الصراط المضاء بشعــاع رقيق من أشعة الشمس، صوب الحمام المجــاور لجامع الحي. إنها ساعــات الحرب الفاصلة، من دون أدنــى أمل فــي الاتفــاق أو الهدنة، حين ترقــد آلاف الجثث المتكلســة بفعل سيل النيران، ترقد تحت سحب سوداء كثيفة في ليل مزيــف كبريتي متشبع بالأبخرة الثقيلة. هل أنت بحاجة لتغتسل من أثر غثيان معنوي أصابك؟ وأن تزيح عن كاهلك لبرهة هذه الهوية المسببة للشقاء؟ أن تغوص فــي مملكة معتمة غير محددة. سيكفيك أن تعبر هذه البوابة التــي تقسم ما بين الضوء والضباب، أن تخلع ملابسك فــوق دكة خشبيــة وضيعة، وتأمن وضــع ملابسك لدى حارســ النفوس المتطهــرة، وعند موضع قدميه جلســ متقرفصًا شــاب هزيل يدخــن الكيف، متدثــرًا بجلبابه الــرث معتمرًا عمامة عفريت.

هل أنت في جهنم السفلى حيث المقر الذي ترشح فيه الظلال؟ أم هو البرزخ أو العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا رقيقًا

وفقًـا لكلمات أشرف الأوليـاء؟ يمحو الضبـاب والحدود، ويظلل المشاهد، يضفـي هالة قوامها الخطر المداهم فـوق الممر وأرض الزلقـة، ما بيـن الأشباح التي تتحـرك بحذر، والأخيلـة المنهكة تبدو مختلفـة الأعضاء والأطـراف. هل ستتقرب إليهـم بدلو إلى حوضـ القاع؟ بينما لم تعتد عيناك بعـد الضباب، ولا يكاد يضيء سـوى بصيص من الضـوء الخافت، مصدره النوافـذ الصغيرة، تبحـث متلمسًـا ركنًا تمد جسدك فيـه ما بين كائنـات أخرى منهكة ومتهالكـة قوامها الحلم نفسه. هـل يأتون أيضًـا لغسل رعبهم من هول المذبحة، ومن الهواء الجاف المدمر، من الإعصار الغامض والعاصفـة المشتعلـة، من الصخـور النارية المنبعثـة من الآبار، وعمليـات القصف التي تـرزح الأرض تحتهـا فترتعش وتخور؟ يلتهـم البخار أشكالهم الهلامية. البعضـ منهم يتحرك ببطء. تنوء ظهورهـم بالحمل فـي انتظار الغسـل المطهر الـذي سيبعثهم من جديـد. والبعض الآخر ساكن بغير حـراك وكأنهم مصفوفون في مستـودع للجثث، وهم غارقون في الحلم أو الإغماءة. وسط هذه الكتلـة المبهمة عديمة الملامـح ستكتشف في ارتيـاح وجود شاب طويـل بهي الطلة، صدره مفتول، عضلاتـه بارزة عروقه نافرة رشيقـة. تضيء وجهه ابتسامـة بيضاء ناصعة تبـرز شاربًا أسودَ رفيعًـا. بدا جلده لامعًا بنـور فسفوري رقيق وبينمـا كان يتحرك

بخفــة بين النفوس المنهكة المريضة، لاحظ أنه يخترقها بسلام مثل شعاع الشمس للأجسام الشفافة.

المــلاك – نعم لقد تعرفت إليه علــى الفور – كان يحمل في همة ونشــاط الدِلاء، يمــر ما بين الزبائن كأنها خيــالات واهنة تتحرك تجاهــك، لينصــب معهم منطقة محــددة تفصلهم عــن الباقين فوق ألواح المرمر الساخن الرطبــة. ألم يعش ابن عربي تجربة مماثلة خلال طوافه بالكعبة. خلال ذهابه وإيابه إلى الحوض، ستتنبه إلى أنــه يغطي أعضاءه بحشمة مرتديًا رداءً صغيرًا، ويبقى غير مرئي لبقية المجموعة. لا أحد غيرك قــادر على رؤيته، وليس بإمكانك توجيــه التحية له، تخمن أنه نكيــر نفسه. وحين تحجبك دِلاء المياه عــن أنظار الآخريــن، ستشعر أنه جالس إلــى جوارك ويدعوك لتوليه ظهــرك. منبطحًا على بطنك فــوق الأرض التي لمعت قبل قليــل، ستترك نفسك ليغسل جسدك ويدلــكك، بلا حراك بين يديه النقيتيــن الصلبتيــن، سلبيًا مثل ميت في رحلــة التطهر. هل حانت لحظة هجرة الروح لتعيش بعد ذلك اللحظة الجليلة للغسل الطقسي؟ هل سيسبل عينيــك، ويسد أذنيك، وفتحتي الأنف بالقطن، ويربط قدميــك ويديك فــوق صدرك ثم يميــل جسدك إلــى اليمين صوب الكعبــة؟ يفرك نكيــر جسدك بطاقة كبيرة، يتحسســه ويحدد أماكن الشــد والعضلات، يخضعك لوقفات ودرجــات منهجية ومحسوبة

للتعذيـب. تتحـول إلـى مجـرد مستقبِـل لأحاسيس الألـم القاسية المتدرجة، لن تتمكن من إصدار أية شكوى.

تصـدر عنه أصـوات وصفير غريـب ونبرات حلقيـة وأنفاس متوحشـة، بينمـا يرقد بكامل جسـده فوق ظهرك المنهـك. ساكنًا مثـل المكمم تتابع فقرات تعذيبك: يداه الوحشيتان تتشبثان بكتفيك، تجبرانـك على ثنـي ساقيك وذراعيـك، تضغطان علـى عمودك الفقـري فتجعلانـه ينثني وفقًا لإيقـاع شهقات ليسـت بشرية. تجد نفسك منسحقًا تمامًا تحت ثقله وتعجز حتى عن التنفس. ماذا يرغب في فعله معـك؟ هل يرغب في فصل أجـزاء جسدك وشل حركتك من الحـزن والرعب، وقتـل أعضائك المذنبـة لأقصى درجة؟. بالرغم مـن أنه أبقى وجهك لصيق الأرض ليعمي بصرك عن كل رؤيـة، فتسجل المشهد غير المتوقع كأن روحك تضاعفت وأصبح بإمكانها أن تتطلع إلى نفسها من الخارج: كأن الملاك طائر جارح تهـزه ارتعاشات السفاد، كان يهز جناحيـه بعنف، ويدس مخالبه فـي ظهرك، وينقر جمجمتك بمنقاره. أكان هذا من محض خيالك أم هـو متوقع؟ المعانـاة غير محتملة وعبثًا تتضـرع إليه «خليني، بلاتي» فلا يزيده ذلك إلا غضبًا. كنت تحت رحمة رغبته المدمرة بينما قلبك ينتفض من الرعب.

مـا الجريمة أو اللعنـة الإلهية التي تكفر عنهـا؟ على الرغم من صراخـك بكل قوة، سيكـون الوقت قد تأخر: علـى الفور ستعاني

من الضغط المؤلم غير المحتمل على قفصك الصدري والدق على ضلوعك. يغطي لهاث الكير للملاك على صوت يخيبك ولا يبدو أن هناك أحداً في هذا الجحيم مهتم بالتدمير القاسي. شدة عناقه لك تكسر عظامك النحيلة، فتتكسر كأنك دمية بلاستيكية، يحطم هيئتك التعسة. هل سيشرع في تفتيت أعضائك فيعاد خلقه بالتهامها؟ فقط عندئذ ستدرك بمرارة الشرك الذي سقطت فيه. جمال الشاب . . ألم يكن ذلك مجرد طعم استدرجك به من يختبرك؟ ذلك النور الغامض الذي أحاطت به علامة واضحة أم حجاب يداري به غرضه في الإغواء؟ وكيف يمكن تفسير ضغطه القوي الخلفي، ولهاثه الحيواني ولذته المتقطعة؟

حين تستيقظ، ستجد جسدك قد عاد إلى حاله السابقة، لكنه مشبع بالعرق.

لماذا دانتي؟

حتــى إن اعترفنا بــدوره الرائد في تأسيس اللغــة وقوة أشعاره المترعــة، ومفهومه الهندسي البارد للآخرة، ألا يصطدم كل ذلك بمبادئ عصرنا ومشاعره؟ الوحشية الجامدة لوصفه، التي لا تقدر تعبيرات الشفقة العارضة على التخفيف من أثرها.

أتــرى هــل تتوافق هــذه التعبيرات مــع المثل العليــا كالتسامح والشفقة التي تهدينا؟

كانت تجلس قبالته، على الطــرف الآخر من المائدة المستطيلة المنخفضة المثقلة بالكتب، فيما استعاضت - كما هي عادتها - بمدق نحاسـي صغيــر يصنع به هو أدواتــه من أقلام وممحــاة وبرايات للأقــلام ودبابيســ. كانت تدخن وتدخــن، أحقًا تدخــن سجائرها «الجاولوسيســ البلو» وفتحــت برقتها المعهودة المــزلاج لتهوية الحجرة. أمالت الرأس بخفة، كان بالإمكان مجددًا رؤية الأسقف، النوافــذ الصغيرة، المداخن، هوائيات التليفزيونات، وقبة الأوبرا المائلــة للاخضرار، وتلك الأطياف البعيدة التي تنعكس مع بنايات حــي «ديفنسي». أم أن المشهد كان محضــ لوحة رسمت بمهارة

وبكل التفاصيل الدقيقة، وبهدف أن توحى بأن كل شيء يجري كما كان عليه في السابق؟

«تأمل ألوان السحب!» قالت بينما تقرأ ما يجول بأفكاره أحقًا تبدو غير حقيقية؟.

لكن هذا الضباب الغائم للمدينة، وحركة الأتراك خلف النوافذ وهم في المحلات يصنعون الحلوى، وهديل الحمائم فوق الأسطح الرمادية، كيف يمكن تفسير كل ذلك؟. لقد جاءت لكي تعيد إليه ملاحظاته المكتوبة عن «دانتي»، وبقيت غارقة في تأملها للوحة المدينة أمامها، كأنها تحاول أن تركب محض صورة للمكان، ربما لتؤكد أنها عادت مرة أخرى. تراتبت الأسئلة في ضميره الباطن وهو يراها مشرقة، مستقلة، رائعة، تصعد السلم بسلام، شاخصة للهدف وفقًا لـ «الدليل» لدرجة معرفتها.

نعم، لكن لماذا؟ هل تبني الإيمان بالآخرة بحسب النصوص الأولى المبدئية لكتاب «المعراج»، هل سيطرح تقدمًا في طريق الإنسان الطويل نحو السلام والتناغم؟ لماذا هذا الإصرار على الغضب والعقاب بدلاً من الصفح والرأفة؟ ألم يكن من الأفضل التعلق بالصوفيين ونبذ اللعنات الغاضبة؟

كان على وشك أخذ المفاتيح والذهاب ليعد لها فنجانًا من القهوة،

لكنه تراجع على الفور عن الفكرة. كيف له أن يعبر الممر ليشرح لزوجته عودته من الظلال من غير أن تجفل من الفزع والعاطفة على حد سواء؟ ألم تكن قد عانت كثيرًا بالفعل من حبه القصير المتحفظ ليأتي ويفرض عليها لقاءً مباغتًا بعد غيابه النهائي؟ استحالة عبوره لعتبة الباب شلت حركته تمامًا. الفضاء الواهي الذي كان يتحرك فيه اقتصر على حدود حجرته الداخلية.

كل فـرد يدرك مستوى معرفته بإدراك الضرورة: يهرع إليها وإليهـا يسكن، مثل الطفل لصدر أمه، ومثـل الحديد للمغناطيس. وإذا ما حاول أن يهرع لقدر آخر فلن يفلح.

وبالرغـم من محاولته تحقيـق هدف آخر فلـن يتمكن حتى من مجرد الرغبة في ذلك، لن يحقق هذه الأمنية.

قبل ذلـك كان الأمر مختلفًـا تمامًا: فكل مُختـار يجد في تحقيق وجوده غايته والعوض عن آماله وتطلعاته.

يهجران قراءة «ابن عربي» ويتأملان في شاشة، مشهدًا قصيرًا للسموات السبع، والأراضي السبع، طوابق جهنم السبع، ودوائر الجنة، والحجـب المتعددة، الأنوار والبحـور والجبال، تتلاحق المشاهد ويعلق عليها صوت يقول:

هذه هـي الحديقـة، مزروعة بأشجـار ضخمة سامقـة، وافرة الثمرات، يستظل بظلها هؤلاء الذين نالوا العفو عن ذنوبهم وعبروا طريـق التطهر. أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، دون توقف، تطهر وتسكـن بجريانها قلوب هـؤلاء الشعـراء الساكنين بها؛ وقد تعافوا من مشاعر الغيرة والحسد التي سممت وجودهم، ينعم الأدباء هنا بسلام روحي غير مألوف هناك، وصداقة وأخوة حميمة.

لو أنني أخبرك بحق فـإن هذه الدرجة ليست ملائمةً لك، قالت ذلك بينما تضغط زر الجهاز عن بعد. لا أتخيلك في واحدة من هذه الندوات الساخنة للشعـراء، أو الروائيين أو النقاد، أو علماء اللغة والنحـاة، الذين طالما حازوا علـى إعجاب مواطني بلادك، حين يتناقشون فيما بينهم في قضايا أدبية تستغرق دهورًا ولا تنقضي. أية عقوبـة قاسية تلك التي ترغمك على المعاناة في صحبة الأكاديميين وخدم السلطــة، والشخصيات الجوفاء المتشحيـن بالأوسمة، كل هـذه الشرذمة من شعراء مدرسة كفافيس، ربات الفن المفوهات، والمتغطرسيـن المنتفخيـن بثقة النفـس الزائفــة، واللائي اعتدت الفرار منهن يحدوك الرعب.

لا أنكـر أنه علـى الرغم من احتقارك لطبقــة الكتاب متوسطي القامة، فإنك ارتبطت بعلاقات صداقة بمجموعة محدودة، يضاهي حكمهـم الأدبي، في كتاباتك، ويفوق جميـع المقالات التي نوهت بأعمالــك على مستوى العالم. لا شــك في أن غياب البعض، الذين انقطعت عن رؤيتهم لعهد بعيد امتد لسنوات إثر ابتعادك عن الأشياء الدنيوية، جعلك تشعر بالإحباط والحنين، نعم أعلم ذلك.

ألــم تر خايمي في المنام تحرســه فتاة مذهلة الجمال ترتدي جلد النمر بينما يرتقي هو سلم «جراند أوتيل» أو «بلازو» وعندما لاقاك احتضنك وحياك دون أدنى شعور بالضغينة، وملامحه الدقيقة إثر

المرضــ الذي فتك به، وهذه الطلة الشبابية، التي يحتفظ بها كطفل نشأ فــي رغد، طالما سببت لك ضيقًا؟ و« مانويل» و«رينادلدو» ، ألــم يهرعــا إلى جلساتــك الليلية إلـــى الدرجة التي رغبــت فيها أن «تعزم» عليها في ليالي شهر شعبان وطقوس النشوة المصاحبة؟. ثم حجتك إلى قبر «الشاعر» المدفون في الأحراش، وهذا الشعور بالسكون والأمــان يناله من يزور وليا. ومعرفتــك المسبقة بأنك سوف تلتقي بمريدين آخرين مجذوبين لبركة قداسته . . بالطبع هى استثنــاءات، لنفورك من جلسات النقاش في المقهى أو التلفزيون، ولجثوم هــذه الطيور المروضة في الجزء الآخر من الأرض التي تمثلــت في أرواح طيور أخــرى، وفقًا لكتابــي، تحلق بحرية في روضـــة الجنة، وتقف على فروع الأشجــار، تقتات من ثمارها، وتشرب من مياه أنهارها وتتحدث مع الرب.

ترى أية درجة ستحتل في حفلة النفوس الكونية؟

وبعـد ارتحـال هائم بين السحـاب ، تعترضه من حيـن إلى آخر حركـة الطائرات في شكل أفقـي أو حدة مخلوقـات ملائكية مختلفة أشكالها .

(أهـم ملائكـة ، أم رؤساء الملائكـة ، أم سيرافيـم ، أم ملائكة آخرون ، أم هى عروس ، أم صفوف الملائكة ، أسماء وردت في تصنيف كتاب التلقين الشفهي الذي درسته بالمدرسة؟)

وقد تعرض للخطر ارتحال الأرواح الهائمة في قائمة الانتظار ، حرة فضفاضة مثل الطيور الصغيرة في البرزخ .

(ترى أيعـود اكتظاظ حركة السير لإضـراب نظمه المراقبون لهـذه المملكة ، بحسب افتراضها ، أم هو العدد الهائل لتلك الكائنات السماوية. التي تتدفق وتتخبط في لحظات الذروة؟

اصطفـت جميعًـا عاليًا ، ومن هنـاك تبدو الأرضـ كأنها حلقة صغيـرة بين أخرى ، من تلك التـي تشكل بعدًا مفقودًا وسط سهول مترامية أبعادها بلا حدود.

نساء ورجـال ذوو محيا أبيض ناصع جميـل ، تزينوا بملابس تضـوع منها روائـح طيبة ، ينزلقون برقة فـي حركات ذات وقع

منتظــم، من دون الالتفــات إلى معرضــ السيدة صاحبــة المظلة التي تــروج لقدراتها في التنبؤ إلى جوارهــا لائحة إعلان تومض بحروف مضيئة: تلفزيون الرؤية.

استلقيــا علــى أريكــة، إلى جــوار مكتبها المغطى بــالأوراق والحواسيــب الآلية والتليفونات. وبعــد أن طلبت إليه السيدة جميع المعلومــات الضرورية، وضعتهــا بالكامل في ماكينــة، مثل تلك الموجــودة في صــالات ألعاب القمــار، ثم انتظــرت إجابة جهاز «الفلاش الفلكــي»، بينما تحرك مروحتها. وأخذت تطوي شريط الأوراق الصادرة عن الجهاز ورقة ورقة عند خط القطع، لتجمع بذلــك كتــاب حياته. مرت لحظــات طويلة تبــادلا خلالها نظرات التواطــؤ والدعــم، محــاولاً أن يكشف فــي تعبيــرات السيدة عن مضمون الحكم.

قالت في النهاية: حياتك ليست نموذجية كما ينبغي. أليس كذلك؟

أخــذت تتصفــح الأوراق المنثنيــة مــن دون أن تمعــن النظر بإحداها، دل ما كانت تقرأه على علامات طيبة بحسب ما وشوشت إليه الأخرى في أذنيه.

أعلم أنــك تحب زوجتك، لكــن حياتك معها لم تكــن دائمًا مثل فراش مكسو بالورود. هل تفهمني؟ أما علاقتك بأشقائك وشقيقاتك فهي تعيسة لأقصى درجة. وفيمــا يخص كتاباتك فلنغض الطرف

عنهـا رحمة بـك. فأنت نفسك قـد اعترفـت! «to be dead to» decency، حسنًا.. حسبًا، أعرف المقطوعة القديمة عن الصدق والاعتراف كأنك على شفا قبــر مفتوح. محض ترهات وألاعيب ساذجة لاصطياد السذج. ماذا تريـد أن أقول لك؟ فبطاقتك الفلكية لا توصف بأنها مضيئة.

أترى هل كانت كلماتها علميــة ذات سند؟ نصف بين السحاب، ونصف قرب الجبل، انسحبا بروحيهما الخفيفتين المذهولتين، ولم يعلم، هل سيحترق يوم الحساب أم سيدخل في الفضاءات السماوية يضيئها الإدراك الأعلى؟.

-16-

يتلمس طريقه بين ضباب «الحاما»، يمرق خوفًا من ملاك يغويه، وتعذيب غادر، تنفذ فجأة إلى لوحة رائعة الجمال:- وفى حلم بطيء، ينعم بصرك بمرأى عشرات من الرجال الأشداء، فرادى أو في جماعات، مظهرهم وحشي، أياديهم متشابكة كأنهم يوقعون عهد سلام. يبدون كمن يحملون الأثقال، عضلاتهم بارزة، وأذرعهم تطوق خواصرهم، ودروعهم على صدورهم المفتولة، سراويلهم الجلدية تتوهج، باطن قدمهم راسخ في الأرض. أجسادهم الصلبة، هيأتهم الجسور، ومظهرهم دليل على شدة إيمانهم، وتدريبهم الموسيقي والرياضي، وأيضًا تجربتهم وتكوينهم الروحي العميق. عند القفز والدوران حول الحفرة التي يعملون فيها، يقبلون باطن أصابع كفوفهم اليمنى، ثم يتلمسون الأرض بها كناية عن التواضع، يقبضون على الأقراص بمحاذاة الحفرة ويضعونها عند أقدامهم، يتحلقون حول المرشد. ينبطحون على بطونهم، مباعدين ما بين سيقانهم لأقصى درجة، أذرعهم مفتوحة عن آخرها لتلامس أطراف الألواح، يقومون بسلسلة من الانثناءات، يرفعون جذوعهم ويشدون عضلاتهم، بينما تتموج أجسادهم تحاكي موجات المد والجزر، تلك الموجات

الناعمة لتيـارات البحور. يحفزهـم المرشد بحـركات لولبية فيما يحصي انقباضـات أجسادهم الحلزونية يتضرعون ويبتهلون المدد مـن «علي» والأئمة القديسين. فقط عندئذ تكتشف مقعد «المعلم»، المتـواري في العتمة الخارجية لحزم الضـوء الخافتة التي تقترب من الحفرة، حفرة المسرات: متكئًا على منبره، في حجرة الطبل، يضبـط الإيقـاع بشكل عجيـب بكلتا يديـه، يعدله وفقًـا لمتطلبات الإنشاد، يحدد بداية ونهاية التدريب، ثم يدق الجرس بدقة وحيوية منقطعـة النظير. موهبته الفذة تدفع وتحفز قوة الأبطال الرياضيين التواقيـن لسمـاع حكاياتـه الملحميـة، الصلـوات علـى الرسول والقصائـد الصوفية الرقيقة. أهي أحلام لازلت تحلمها؟ وماذا عن العمالقـة المسلحين بمطرقـات خشبية مستطيلة ضخمـة تستند على فجوات أكتافهم وكأنهم مجنـدون يتدربون، أترى ينتظرون منك إشارة البدء؟

رؤياك عندما كنت تراهـم يحركونها بشكل متناغم، ويقطعون بهـا دوائر كاملة بمحـاذاة عظم أكتافهم وصدورهـم. أهي حقيقة؟ المشهد المهيب لحاملي الصولجانـات الذين أضحوا أبطالاً في لعبة ورق مترفـة، أيعكس كل هذا مشهدًا ماديًـا محددًا، أم هو محض خيال مبهر بفعل تعرية وضعـه الشائك المهتز؟ وماذا بشأن ملوك الهـروات الرائعين، ذوي الأذرع المقوسـة والأوتار الحديدية،

أتــرى انبثقــوا عن عالم سري بــراق ، مثل شخوصــص حلم مباغتة تجســدت في بهاء؟ نشوة وانخطاف وبهجة وغبطة: الوعي بأنك قد ارتقيــت درجتك ، حظك من العظمة والمتعة الباطنة دون أن تقدر روحك على فرصة الحصول عما هو أفضل. ألم يقل «ابن عربي» إنــه إذا لم تمضِ الأمور على هذا النحو ، فلــن تصبح السماء مقرًّا للسعادة والغبطة ، بل مقامًا للألم وخيبة الأمل اللاذعة. وحين تمعن النظر تتأمــل عمق الحفرة واستدارتها الكاملــة ، الشفرة والصوت لثنائيــة الثواب والعقاب لديك. وهؤلاء الجوالون يطوفون بملاحة ورشاقــة مثل اعتــدال عرناس المغزل ، تنمحــي أطيافهم الصليبية كأنها دوامات أو دوران المراوح.

تــرى هل حظــوا بنعمة حساسيــة اللمس والاتســاق؟ ، ويا لهذا الإيحــاء أو هــذا الشكل الخرافي الــذي يعكسه هــؤلاء الرياضيون الذين يرتعشون من إخمص أقدامهم إلى أطراف رؤوسهم ، كأنهم شجيرات واهية تحركها نسمات أو السطح المترجرج الهزاز لسائل ما تداعبه ريــاح ناعمة؟ وحين يرفعون أذرعهــم تتلوى أجسادهم مثل هيئة ألسنــة اللهب في فضاء سحري دائــري ، أما زلت منتميًا إلى عالم الأجساد أم ترى أنك تعيش لحظة تبصر ، وأنك انطلقت للأبــد بعيدًا عن المخلوقات والحيل وبالأخص الحساسية المفرطة. مجذوبًا صــوب الحفرة المضــاءة بنور صاف طاعــن يصدر عن

مصابيح، تعجب، وسيزداد إعجابك بهؤلاء الأبطال يستكشفون بحماسة متانة أجسادهم وصلابتها. يشتبك كل منهم بأعضاء غريمه، ويفلت من ذراعه بسرعة وخفة، ويغني المعلم:

إنها عذبة مثل قيود العشق،

هذه المبارزة.. صراعاتها ومغانمها

مجابهة الخصم وفقًا للأحكام

إنها البهجة الصافية.

لكنك تلتهب، تلتهب مثلهم، ملفوفًا في تاج اللهيب، تلتهب، تحترق، وتتلاشى من قدميك لرأسك، مثل كائن ناري خاضع لحلقة المخصصين لنيران الاتقاد، ضحايا طيعون لعاطفتهم وعنف جبلتهم. يدهشك اختفاء الألم، وبطوافك حول حفرة الشفافية، لأجل ما فزت به من تجل إلهي، ستنال المعرفة وأنت رهيف رقيق، ستدرك انقشاع الألم المتأصل للعقاب وبالمثل ذاتيتك الفردية.

-17-

أو كان في رؤية درجته أي إرباك لكينونته، أو تأليه للمخلوق، أو تجسيد للمتعال؟

أجاب: لاشيء من هذا. يرى «ابن عربي» أن تضاعف الأشكال ما هو إلا إيماءة تكوين معقدة للحاضر بعينه. وما المادة، الأشخاص، الأحداث، الظواهر الطبيعية والأعمال الفنية إلا علامات لهذا الوجود الحاضر.

وهكذا فالثراء اللا نهائي وتنوع العالم بالإمكان أن يتلخصا في مشاهد مثل تلك التي وصفتها، وفيها الجمال المشع للجسد، وما هو إلا اتحاد، خطوب ونشوة، برهانًا على أن الأنا والآخر ينصهران في واحد.

وضعت الكتاب فوق الطاولة وشرعت تضحك. ذوت سيجارتها في المطفأة، عند طرف المائدة المغطاة بالمجلات، وعندما انتبهت أطفأتها بعناية، وحركت الهواء بيديها لتطرد الدخان.

وكما هو واضح، فقد تعلّمتْ درسها كأفضل ما يكون. تحول البحث عن هامش في ذيل صفحة في دراسة عن عالم الآخرة في الديانتين المسيحية والإسلامية في الأعمال السابقة لـ «ميجيل أسين

بالاثيوس»، إلى تربة خصبة لعالم ملغز رائع، محيط شاسع بلا ضفاف. هل تذكر العبارة التي وردت في«The Crack-Up» التي ذكرها في المحاضرة خلال أحد الفصول الدراسية التي ألقاها في نيويورك: ومفادها أن الدليل على الذكاء الحاد يكمن في قدرته على التركيز في فكرتين متناقضتين، من دون فقد القدرة على أداء العمليات الذهنية؟ ألم يكن كذلك؟ أثارت الفقرة دهشتها، فسجلتها لتحفر في ذاكرتها، ذلك أن «ابن عربي» هو الدليل المقنع لهذه العلامة أو قل هذا الطابع.

فجملة أعماله، أي الفضاء النصي لأعماله، ما هو إلا مقدمة أو ميدان تتقارب فيه الأضداد، وتذوب فيه العداءات، يتصالح فيه المعتم والمضيء والفاني والباقي، كل في انسجام. يقودنا حيث يريد من خلال ومضات مشرقة أو تجليات، العالم بأسره المؤمن والكافر منه يعظم الرب.

اسمح لي أن أقرأ لك هذه الفقرة: « إذا نظرنا، فلا ننظر إلا له، إذا سمعنا فلا نستمع إلا إليه. يتجلى في كل محيا، ولا تنظر العين إلى سواه، هو المعبود في المعبود قاطبة». قد تراني أجترئ، ولكن هاك قراءتي: الهوة الدائرية.. غاية ومنتهى لآمالك، هو استجلاء حضوره وولوجك الدائرة هو فعل الخضوع.

كانت تتحدث في عجلة، في حماسة، دفعت بالدم إلى وجنتيها، وأبرز ملامحها الوضاءة. ومن النافذة المواربة (هل كان صيفًا؟)، جعلا ينظران بإعجاب إلى لونِ الأسطح الرمادي الباهت، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة إلى الاصفرار، وناطحات السحاب دقيقة الحجم في حي «لاديفنس»، وخيال «مون فاليرين» الكائن هناك. هذه التفاصيل الدقيقة وتلقائية حديثها زادت حيرته.

بادرته تسبق اعتراضه: فلتنسَ «دانتي» ونصوص المعراج البدائية، أم عساك تفضل أن نرجع إلى وكالة «السيدة ذات المظلة» ونقوم بجولة مصحوبة بتعليق في «الميدان الثالث»؟ أم تفضل مشاهدة عرض فيديو لحكايات «بوش» ولوحات «دوري» المحفورة؟.

عندما يزج الشاعر بمعلمه «برونيتو لاتينو» في دائرة الفاسقين المجرمين، مرتكبي الجرم الأكبر، فيصفه وهو مغطى بالبثور، ووجهه مشوي عن آخره: كيف لنا أن نعتقد في احتجاجاته الناجمة عن الحب والاحترام، إذا وضح أن الأمر لم يتعد كونه مجرد انتقام بائس.

لماذا يتركه في هذه التربة المثخنة المضطربة، في هذا الرهط المقدر له بكاء آثامه إلى ما لا نهاية بوجه كالحبر غيّرته النار؟

يا لــه من مثال على السماحة والـروح المسيحية! فلنرجع مرة ثانيــة إلى موطنك: الجحيم هو تلك الغلالة الفاصلة التي تحول دون أن يعـرف الإنسان الله في جميــع صوره، هو الحجاب لمن يتأمل في تجلياته دون أن يراها رؤي العين. هذا هو ذنبه وعقابه الحق.

أخذ شخص ما يقرع باب الأستوديو مستخدمًا الطبلة النحاسية، فتبــادلا النظر في قلق: أو يقدر هؤلاء الذين لم يلجوا بعد إلى فضاء الشفافيــة أن يلمحوهما، ويتقابلوا معهما، ويتبادلوا معهما الحديث؟ التزما الصمت وحبسا أنفاسهما. وأخيرًا، بعد انتظار بدا بلا نهاية، تناهى لسمعهما صوت شيء ما ينزلق من أسفل الباب، يتبعه صوت خطـوات متذبذبة على الأرضية الخشبية، تــلاه أزيز المصعد يبدأ يتحرك.

-18-

وعلـى السجـادة المفروشة على الأرض فـي المدخل على بعد سنتيمترات قليلة من الباب ، ظرف صغير مستطيل من دون إشارة عليه لهوية المرسل إليه. فضّه بواسطة فتّاحة الورق ، بينما جسده ينتفض ، وقرأ بصوت مرتفع؛ ليخبرها بفحوى الرسالة:

سيدي العزيز:

نطلب منكم الإجابة باختصار شديد، وبصورة واضحة ومحددة عن الأسئلة التالية، ولكم جزيل الشكر:

1ـ من هـم المتسترون ، الأصفيـاء، الأتقياء، الحارسون المخلصون ، الذين يتخفون بين الورى خشية أن يبصروهم؟

2ـ في أي تاريخ تحديدًا بدأتم ممارسة العادة السرية؟

3ـ ما عدد مرات إخراجكم وما إفرازاته؟

بإمكانـك أن ترسـل إلينـا الإجابـات مكتوبة، إذا بـدا لك أكثر ملاءمـة، وللعلم إن القواعد تسمح لك بالإفـادة الشفهية في مكاتبنا خلال ساعات العمل

تفضلوا بقبول احترامنا،

دكتور نكير ودكتور منكر

خبيرا الحساب

انتفض قلبه. كيف تمكن المحاسبان من الكشف عن سر مخبأه القديم في مملكة الأحاسيس الملموسة؟ أترى يتحركان مثله، بنفس السهولة في مجال العالمين؟ رجع إليها متحيرًا، وتضاعفت حيرته حين وجد الباب مغلقًا على حاله بمزلاج، وأن المكان لا يتيح أيّ نوع من الهرب، إلا أنها اختفت في صفاء وسهولة.

-19-

حيـن استيقـظ أو عبر مـن حلم إلــى آخـر ، أربكتــه المفارقة التاريخيــة. لهــذا الموقــف: ألم يترك – بعــد موتهــا – الأستوديو المواجه لشقته حيث قابلها حاليًا ، لينتقل بأوراقه وكتبه إلى الطابق السفلــي المتصل بشقة زوجته عبر سلم حلزوني؟ وإذا كان انفصاله عـن سجن الجســد تم هنــاك ، فما مغزى هــذه العــودة التخيلية أو الحقيقية للظرف السابق؟ وماذا عن هذا النفاذ الواضح ، هل يخضع لتعســف القوانيــن الحاكمة للأحــلام ، أم هو محض أثــر لسلطات مسوخ الأرواح التي تهيم كيفما اتفق في البرزخ خلال الأربعينية؟

استثمـر في العالم الآخر، تملك أنت ونصفك الحلو قطعة أرض قابلـة للبنـاء، فيلا مستقلة مريحـة، أو شقة مـن طابقين في عمارة فاخرة. تطل بشكل استثنائي على الفضاءات السماوية المنيرة، في مختلف درجات الفردوس أو دوائره، وفقًا لما يتيحه مسكنك.

نقدم عروضًا خيالية لمعروضاتنـا! تسهيلات كبيرة في الدفع، ومكافآت خاصة للمحاربين القدماء وعربات الحروب.

تصيح السيدة ذات المظلة خلال مكبر الصوت، توزع إعلانات ومطويـات، وتقدم نمـاذج للعقـارات والشقق وتصميمـات بناء صادقت عليها إدارتا الإعمار الحضري والبيئة.

مقر شركتنا القابضة الأصلي فـي «تامبا»، وفلوريدا الولايات المتحـدة الأمريكية، تـم إعدادها بالتنسيق مع خبـراء القيادة العليا لعملية «عاصفـة الصحراء» ذات الشهرة العالميـة، الهرم الكامل للإمـارة الشهيـدة وإعـادة إعمارهـا، وهـو مـا أنعشـ اقتصادنا المحتضر، وملأ الكون إعجابًا وفزعًا. والآن، طويت هذه الصفحة العظيمة من تاريخ قواتنا ورموز علمها النجوم والخطوط، وقرر قطـاع الإدارة بعد اجتماعه بطاقم المساهمين المبادرة بقفزة نوعية ومـد أنشطته في مجال البناء هـذه المرة، التي تحترم عنصر البيئة

بما في ذلك ملكوت السماوات، من خلال تعاون وثيق مع مؤسسة (KTC) ومختلف المجموعات البنكية.

Sans oublier la touché du chic et du refinement. La difference francaise![3]

صرت منجذبًا مثل أرواح أخرى هائمة، نحو قاعة عروض الشركة القابضة، ثم ستتابع معها شريط الفيديو الذي سيعرض المادة الدعائية بمصاحبة أبيات شعر لـ «دانتي» وصورًا من الجنة بحسب رسومات «دوري».

تأملوا الجبل المقدس لكمال الروح وخطوبها، ألباب الفضاءات تعكس الأشعة من عليين، وتطبع على المادة صورتها.

كما ترون فإن الشرفة التي التقطت منها هذه المشاهد لشقة من طابقين في إحدى مبانينا السكنية، مزودة بجميع وسائل الراحة التي تطمحون إليها، بعد حياة كرست للصفقات وانتصار مبادئها للتقدم والعدالة.

لاحظوا تفاصيل حجرة الجلوس، والصالون البانورامي، وأجهزة التلسكوب المخصصة لمتابعة رحلات طيران المخلوقات السماوية، ومسار صواريخنا الباليستية.

---

(3) دون أن ننسى لمسة الأناقة والرقي، التميز الفرنسي. (المترجمة)

وضـــع تحـــت تصـرفكـــم التطـــورات التقنيـــة وأساليـــب الغزو؛ لتستمتعـــوا برغد العيش، وكل ذلك بأسعـــار خارج المنافسة، وفقًا لما تحتمله مدخراتكم.

وفجأة.

Merde! Mais qu'est-ce que c'est ca?(4)

فبدلاً من تصميمات العالم تحـــت القمري والرؤية الطوباوية، عكســـت الشاشة صور خراب ودمـــار وأطلال، عربات متزاحمة تشتعل، أبخرة قاتلة تنفثهـــا طائرات تحلق على ارتفاع منخفض، أجســـاد متفحمة، مروحيـــات تقذف ألسنة اللهـــب، مشاهد رعب، شتات جحافل نمل هائج، مشاعل، محيا أطفال ونساء يلهثن لنقص الأكسجيـــن، نيران، مزيدا مـــن النيران، سفـــر الرؤيا، رعب، احتراق جماعي.

(صوت بعيد: Say hello to Allah)

شخصـــ مـــا (أترى شيطـــان أم جني؟) يبدل شريـــط الفيديو في الجهاز المتصل بتلفاز السيدة ذات المظلة.

---

(4) اللعنة! لكن ما هذا؟. (المترجمة)

-21-

هل هي ذكرى باقية من تدريباته الروحية في دير «مانريسا»، أم إعــادة صياغــة تاليــة على ضوء كتابــات «بلانكــو وايت» في «سيرتــه الذاتيــة»، وتداعيــات «إستيفــن ديدالوس» كمــا رسمها جويســ؟، قالت: تلك الرسومات القاسيــة للعواصف، التشبيه بين الطائــر الصغير وجبة الرمل يلتقطهــا بمنقاره كل عشرة آلاف سنة فــي الشاطئ الشاسع، القصة التعســة للمراهق الذي تقذف به ألسنة اللهــب الخالــدة، جراء ذنب واحــد هو النجاســة، يعرض كل هذا ضمــن مشهد مسرحي خبيث، ومحاكاة كهفية قبالة جمهور صامت مرعوب بعد أيام من عزل محكم. يتطابق كل ذلك في حقيقة الأمر مع صيغــة منحطة فقيرة للإيمــان الشعبي بالآخــرة، وما يروجه الواعظون الجهال المتحكمون في بث الخوف.

لم يعد أحد يعتقد في الجحيم ولا في أسطورة الطفل الذي يحترق فــي قدور «بدرو بوتيــرو» جراء خاطر خبيث عــنّ له، وبعد أن دهسته حافلة عقابًا له.

استقرت بهــا الحال بأحد المروج، بالقرب مــن حديقة النعيم، وطوقا بناظريهما بئر المياه مبعث النشوة، تتحول إلى لهب الوجد الحي، والعين التي تعكس عيون المحبوب مجازًا، والشجرة التي

تنمو في صلب الروح المتأملة، نفوس الأبرياء المتجسدة في طيور صغيرة في طواف محموم، وريشها بياضه باهر. بادرت تهدئ من روعه؛ لأنها لم تكن تثق في حواسه، كل هذا يصوره الديوان الصوفي، ولن تأتي السيدة ذات المظلة لتعكر هذا السكون بحوارها المزعج.

قرأت بعناية مادة النص البحثية، وبالرغم من أنه لم يكن باستطاعتها مساعدته في العمل أو ترجمة أوراقه، فإن خبرتها المتراكمة المكتسبة في البرزخ مكنتها من الكشف عن أنوار وتجليات خاتم الأولياء. قالت: جهنم موجودة، لكن خلود الدوام بها لا يفرض ديمومة الآلام. ستمتد الرحمة لتشمل الجميع، وستصبح نار الهالكين بردًا وسلامًا.

ولأنه توجد مخلوقات أرضية وهوائية ومائية، فلماذا لا توجد النارية؟ أو ليست النار هي العنصر الأكثر جمالاً ونشاطًا في العناصر الأربعة؟. أما هذه المخلوقات الملتهبة، مهما كانت خطورة ذنوبها، تحيا وفقًا لقانون طبيعتها، وسوف تعاني إن حرمت مما تستلزمه طبيعتها؛ مثل السمك يختنق حين ننزعه من الماء. فالنار مجالها وفيها تعرف سعادتها الأبدية.

يا لعبقرية الطريقة هذي في تفسير نص الكتاب المنزل! أو تتصور فضيحة هؤلاء اللاهوتيين والفقهاء؟ انظر دائرة الأبطال

الرياضيين، بادية عليهم علامات السعادة، وجوههم وشواربهم المقرونة، عضلاتهم المفتولة، وأجسادهم المدملجة القوية، «مثل كتلة كريستالية موشورية الأبعاد، عظيمة الهيئة صافية»!

كم من المرات جثوت أمامها في ذل وإكبار من هول حجمها وأشكالها، وروعة تفاصيلها، الصلبة الكثيفة؟ بصرك بتجليات كون تسبح له فيه الكائنات قاطبة، بما فيها الأحجار، فهمت بهم عبادة. لقد ألهاك تكاثر الأشياء والكائنات. والآن بعد أن قرّت الروح وهدأت، ستقدر على التقاط انسجام العناصر وتوافقها بحماسة ساكناً ولطيفاً. انظر مجددًا لعرض الفيديو للحفرة واحتفالية الرياضيين ذوي الأجساد المتينة، تحترق معهم، مع أكثرهم أمانة وأوفاهم شجاعة. يتداخل جسداكما الملتهبان لحد ذوبان الواحد في الآخر! أوليس هذا ماكنت تبغيه على نحو خفي حين قررت تأليف الكتاب؟

زوجته! أمن الممكن لهذا أن يحدث؟

أتراها غادرت مملكة المحسوس بشكل مؤقت لتحيته، أم يكون هو الذي قفز للخلف فتسلل إلى درجة عالم آخر انقضى ؟ هذا الفضاء الحميم بمظهره المألوف لمنزله، بدا له مقلقًا مثل تلك اللحظات الهادئة الخادعة التي تسبق انفجار العواصف الهوجاء. وبينما يخلع معطفه بحذر، استشعر حركات زوجته بالمطبخ، تخرج مكعبات الثلج من البراد. تتوجه إلى حجرة المعيشة بخطى مرتعشة؛ خوفًا من أن تصدر عنه لفتة مباغتة تخل بالتوازن الهش للعناصر حوله. تتداخل في ضميره أحاسيس ومشاعر متضاربة.

أيجب عليه تحيتها بينما تنسكب دموعه بحنان، مثلما تتطلب الطبيعة الاستثنائية للظرف؟ هل يقذف بنفسه إلى أحضانها ويطلق العنان لعاطفته المكبوتة؟، لكن كيف سيفسر لها بشكل عقلاني مقبول اختفاءه وعودته؟ ألن يكون في ذلك مخاطرة تعرضها لصدمة تحرمها استخدام حواسها؟

على الرغم من ذلك، سمعها تحييه باسمه من المطبخ بطريقة طبيعية، بينما يدخل. كان الوقت المعتاد الذي تتناول فيه كأس

الويسكي بعد يوم عمل محتمل أو زيارة بعض الصديقات.

بدا له المكان ملغومًا بالحيـل، وبعد أن اختبر خيارات عدة، مثل دخـول المطبخ للقائها، أو التسلل خلسة من المصعد الداخلي إلى مكتبـه، أو التظاهر بقضاء الحاجة، فيلجأ إلى الحمام انتظارًا لمـا سيحدث، قرر في النهاية البقاء فـي الصالون الصغير، وأن يسترخي مصطنعاً الراحة في أحد المقاعد الوثيرة.

سألتـه بعد أن ظهرت مرتديةً قفطانهـا الأحمر المشرب بلون بنفسجـي، وجلست على الأريكة بعد أن وضعت وعاء الثلج على الأرض:

- هل اشتغلت جيدًا؟

ابتلـع ريقه غير قادر على التفوه بشيء غير همهمة ما، يشعر بالرهبة والحيرة لوضعه، ومدى واقعية المشهد حوله.

لكـن كيف أنها لـم تبدِ أية دهشـة لرؤيته، ولـم تلامس شفتيه بشفتيها بخفة مثلما تعودت حين يعود بعد طول غياب؟

يبـدو الأمر لهـا؛ كأنه عائد لتـوه من جولة بالحـي أو كأنه لم يخرج أساسا من البيت.

انتظر لحظات ثم قال مخبئًا وجهـه خلف الصحيفة، متظاهرًا

بالاندماج في قراءة أخبار الحرب: تجاوز عدد الطلعات الجوية لقوات الحلفاء معدلاً مثيرًا للدهشة تجاوز ستين ألفًا! وأبرزت أخبار القوات الخاصة المستوى الرفيع لاستعدادات الضباط والقادة إزاء الهجوم البري الوشيك.

قالت: لقد سجلت المكالمات الهاتفية. لا شيء مهم، فقط ترك صاحب إحدى المكتبات رقم هاتفه. وبالمناسبة عندما نزلت إلى حجرتك، عثرت على إحدى درجات السلم على نسخة مدونة عليها ملاحظاتك لـ «الكوميديا الإلهية»، كيف نسيتها هناك؟ هل سقطت منك من دون أن تنتبه لها؟ كانت تتحدث بهدوء يتنافي تمامًا مع طبيعة لقائنا غير العادية، منهمكة تمامًا في الشأن اليومي، حتى إنها لم تلاحظ ارتعاشة يديه واضطرابه العميق. كشف محياها الهادئ وابتساماتها المعتادة بوضوح غياب أي لمحة قلق أو عتاب. كان بالإمكان القول إن باختفائه القصير من العالم مكث قرينه إلى جوارها يؤدي دور الزوج.

فأيهما الحقيقي؟ ذلك الذي يهيم في ضباب البرزخ أم هذا الموجود بالمنزل؟

انتهز انشغال زوجته بمحادثة أبيها تليفونيًا؟ قالت بتنهد: أبي. نهض من مقعده الوثير وألقى نظرة على ترتيب الحجرة؛ ليتحقق من أن شيئًا لم يتغير، هبط السلم الداخلي ودخل حجرة

عمله يلقي نظرة. كانت الحجــرة مضاءة، ووقعت عيناه أول ما وقعــت على صورتهــا - شعر أصفر، عينان زرقــاوان، سلسلة ذهبيــة تطوق عنقهــا، كان وضعها على الخزانــة ذات الأدراج في أعقاب عودته إلى المدينة قبل عام ونصف، بعد هجرته لعالم الخفة خلال أحد أسفاره. تفحص بسرعة رفوف المكتبة المحاذية لمكتبــه؛ قواميس، مدونات، أعمال للمراجعة، كل شيء بقي في مكانه. عثر على بعض أوراق لنصوص له لم تنقح. التقط أحدها واكتشف مضطربا أنها مسودة المخطوطة الخاصة بهذا الفصل.

-23-

رأى في المنام أنه يكتب قصة لـ « ابن عربي»:

وإذا سألتموني وماذا عن حكاية « الجوهري »؟ بإمكاني إخباركم بحسب ما قاله هو نفسه، أنه خرج ذا صباح طيب من منزله يحمل عجينًا مختمرًا إلى فرن الخباز وكان جُنبًا. وبعد أن ترك ماله لدى الخباز توجه إلى نهر النيل ليتطهر، وبينما هو في النهر، إذ به يرى نفسه على الحال نفسها التي نرى عليها أنفسنا في الأحلام، كأنه ببغداد. كان متزوجًا من امرأة لمدة ست سنوات، وله منها عدة أبناء، لا أذكر الآن عددهم. ثم ارتد إلى نفسه، وكان لا يزال في الماء، تطهر وخرج من النهر، ووضع رداءه، وعرج على المخبز ليحمل الخبز، وحين عودته إلى البيت قص على عائلته ما كان من أمر الرؤية التي أبصرها. مرت شهور عديدة، وجاءت إلى المدينة السيدة التي بنى بها في النيل، وجعلت تطالع معالم المدينة. وحين طرقت باب بيته عرفهم على الفور، هي والأبناء، ولم يقدر على إنكارهم.

سألوها متى تزوجك؟ فقالت: منذ ست سنوات وهؤلاء أولادنا. وهكذا فإن ما حدث في الخيال ظهر ملموسًا في عالمنا.

وهذه إحدى الحكايات المروية عن «ذي النون المصري» وتحتار في تفسيرها العقول.

هل كانت هذه الحادثة إفصاحًا أدبيًّا لبهجة خيالات بعيدة الاحتمال، تلك التي عرفها «بلانكوايت» واختبرها «بورخس»؟ أو أن الأمر، كما لاحظت زوجته عندما عرض عليها النص، مجرد حيلة ماكرة ساقها «الجوهري» ليبرر زواجه من امرأتين، فأكسبها هالة من القداسة؟

ما كانت هي على يقين منه أنها لو كانت محل الزوجة المصرية، لما اقتنعت بالقصة ولما استقبلت امرأة بغداد وبصحبتها حفنة الأولاد.

قالت بحنو قبل أن تغادر الحلم وتتلاشى؛ إنها لحسن الطالع لن تتعرض معه لمثل هذه المخاطر.

وضعت البهيمة قوائمها عند عتبة الباب وتمكنت منها، وبالرغم من أنني حاولت منعها من الدخول، خارت قوتي إزاء لامبالاتها الجبارة، استولت على المكان بتمهل، تَجول المنزل وعليها سمات المالكة، تتمدد على البساط إلى جوار فراشي وتتأملني لساعات. لا أميز خيالها بوضوح، ولكني تبينت حدقتي عينيها المثبتتين فوقي. لا تفارقني نهارًا أو ليلاً، تترصد حركاتي وخطواتي برباطة جأش، ولا تلتفت بأي حال إلى صخب الزيارات. لم تشعر بوجودها أمي أو أخي أو زوج أمي أو الطبيب الذي حضر لعلاجي.

يسيرون بمحاذاتها ولا يبصرونها، يجسون نبضي ويتابعون صحتي وشهيتي، يعربون عن قلقهم بشأن حالتي العقلية.

وحين أحادثهم عنها لا يلتفتون إليّ، يوجهون لي عبارات التشجيع، ويوجهون دفة الحديث لموضوعات أخرى. يتحدثون عن شطط عابر، انفصام في الشخصية. عاجزين عن رؤية عيني البهيمة الخضراوتين المتقدتين، غير متماثلتين، تبدو أحيانًا كزمردتين مرصعتين في رأسها عند محيطين غير محددين، في أحيان أخرى تجدهما معلقتين في الفضاء، متوازيتين، طافيتين ببؤبؤهما الذي لا يُسبر غوره، منتبهتين لأهون إيماءاتي.

ترقبانني بدأب، وبالمثل تفعل مع عائلتي، عينان تتضاعفان نظراتها وحركاتها: تقتحماني من الباب، البساط، النافذة والسقف. أزواج عيون متعددة تقف في أماكن مختلفة في غرفة مستشفى الأمراض النفسية التي نقلت إليها: خضراوان على الدوام، براقتان، غير متناسقتين، غاية في التحديد غير أنهما متقابلتان، مثبتتان على أينما نظرت، حتى إن أغمضت عيناي. تحول ما كنت أخشاه وأنا طفلة منذ موت أبي إلى واقع ملموس. تفجر وجود البهيمة التي تتفحصني في حياتي، سيطرت على نفسي وحواسي، تتحكم بعقلي وتحجم إرادتي. عيناها الفاحصتان موجودتان في كل مكان، تتكاثران مثل فيروس خبيث، تغرقني بوجودها في كل مكان: أجدهما في ثنايات الفراش، على صينية الإفطار، غائصتين في كوب الماء، ذائبتين مع نقاط العلاج التي وصفها الطبيب، كيف لا يرونها جميعهم؟ هل كف بصرهم؟ هل نظرهم أعشي لدرجة ألا يرونها؟ ولأهرب منهم أغادر سرًّا المستشفى، أتجنب المرور بخدمة الملاحظة وأنطلق جريًا إلى محطة القطار الواقعة بتلك البلدة الكريهة في الضواحي، بمنازلها المصطفة، وشوارعها بالغة النظافة لحد القنوط، ولافتات معلقة تهدد بوجود كلاب شرسة، متوحشين مثل أصحابهم، أستقل القطار المتوجه إلى باريس، أجد نفسي في محطة «جاردي نورد» وبعد ذلك بسنوات حين قرأت كتابك، وصادفتني

عبارتك الملغزة التي تصفني فيها على هذا النحو: «الصرخة النافذة» للفتاة النافرة التي تعبر صالة محطة القطار، وتُشكل حولها فضاءً مقدسًا لا يستطيع الفضوليون اختراقه، فهم غرباء عن هذيانها، انفصلتُ عن إحداثيات الزمان والمكان، ورأيت نفسي مجددًا في صالة محطة القطار الشاسعة، التي تعج بالأشخاص، تتربص بي عيون البهيمة المتضاعفة بشكل لا نهائي، فيما أسعى لأشق طريقي وسط الجموع المحتشدة، يفرقها صوت مكبر الصوت، فأكثف في تلك الصرخة جل وحدتي وجزعي.

وعلى الرغم من أنك لم تحددني بالاسم، فإنني عرفت أنني المقصودة. غير ذات قيمة إن كنت أو لم تكن شاهد عيان للمشهد، ألم تكن في ذلك التاريخ محطة «لاجار دي نورد» هى محطتك خلال درجات صعودك؟ كشفتني عين الخيال.

أعتقد أن هاجس لقائنا أنقذ حياتي، وأتاح لي التغلب على تلك الوحدة. لم يكن الفرار من دون جدوى، لقد عدت إلى المستشفى. وشيئًا فشيئًا بدأت عيون البهيمة تحل قبضتها، تخلت عن حصاري، ورفعت الحظر، ذابت تدريجيًا في الجناح المعقم للمجاذيب الذي أرسلتني إليه عائلتي. ومن دون أن أدرك يقينًا، خمنت أن شخصًا ما قد التقط معنى الصرخة، وعثر في تحديه على منطق ذاك المعنى وحصانته. منذ هذه اللحظة، شعرت بصوت داخلي

يناديني، صغير رقيق يخرج من أعماق صدري ويتركني معلقة، أتأمل مدى رسوخه داخلـــي واقترابه من نفسي، وفي الوقت نفسه فهو قصي، وعلى قدر مشقتي المبذولة، لم أتمكن من تملكه. لكنني شعــرت أنني شفيت، وقادرة على مواجهــة الموجود، والبعد عن عائلتــي، وأن أتلمس حظي في أمريكا، فأتزوج وأنفصل، وأتابع دراستي الجامعية حتى اليوم الذي عرفتك فيه مصادفة، في إحدى الدعــوات المملة لعشاء الأساتــذة والخريجين فـــي «مورنينجسايد دريــف»، وتولــدت لدىّ قناعــة - حتى قبل قــراءة كتابك - بأنك مــددت لي يــد العون في أحلــك لحظات المحنــة والشقاء. ولحظة اختفائي في النهاية، عقب ارتحالي وسفري إلى البرزخ، أدركتني الراحة حين اكتشفت أنك لم تكن في المقبرة مثل الآخرين.

استمتعــت روحي حينهــا بالشفافية، وحفرت بهــا أخيلة العالم، باستقــلال تام عــن العصور والمسافــات. استمع إلىّ جيــدًا: شكّل نصــك مستئنسًــا بخبرتي المباشــرة لحدس الروائييــن والمتصوفة الذيــن أطلعتنــي عليهــم. ألا تــرى أن الأحلام التــي لا تقدر على إدراكها سوى العين، قادرة على اختراق ما جرى، وما يجري، ومــا سوف يجري. فأيــة ملكة، فيما عدا الخيــال، تحظى بموهبة لتشمــل وتخلــط الأمكنة والأزمنــة، وتوجز الكــون كله في رحم كتاب محظوظ؟

لا يرتبــط الأمــر بشريط فيديو السيدة ذات المظلــة، أو الشاشة التي تعرض لوحات «جوستابو دوري». يسمح الفراغ الحضري الذي تعبره بتتابع لا نهاية له؛ لأطلال قذائف وأخاديدها، واجهات مبــانٍ تزعزع توازنها، مــآذن مبتورة، بقايا حافــلات متفحمة، دبابات مهجورة بداخلها ذخيرتها، محطات وقود مشتعلة، مساكن جوفــاء فتحاتهــا ســوداء، بقايا النهــب وعربدة الدمــاء، وضحايا الإعــدام الجماعــي، تلفهم موجات هــواء يستحيــل تنفسه، رائحة عطنة لها مذاق مسكر لأجساد متحللة، وآلاف المدنيين المشدوهين لحظــة هروبهم، عيون جاحظة من أثر الهــول، جبهات اخترقتها الرصاصــات، وأياد متوترة تشير بإصبــع السبابة لاتهام المسئول غيــر المرئي عن هذه المذبحة. أتــرى تمت التضحية بهم كخنازير تجارب على مذبح التكنولوجيا الحربية الحديثة أم هو الثأر الأعمى للخاسر؟

لن تقدر أن تجيب بدقة بسبب موقع رؤيتك المهتز.

بالمثــل لا تعرف مــكان وجــودك أو كيف وصلــت إليه، قبل وصول جماعات ابن آوي وزحف قوات العدو. هؤلاء المنبوذون المجهولون الذين تجاهلهم دانتي، أهم أكراد، أم شيعة، فلسطينيون،

مرتدون، أم فارون من الجندية، جميعهم فريسة للرعب أم مجرد أبناء للأرض الخصبة لما بين النهرين، يستمسكون بغريزتهم في البقاء أحياءً، كونها الحقيقة الوحيدة الراسخة التي لا ريب فيها. أم لعلك وصلت إلى الدرك الأول من جهنم، سهل الزعابيب أو سجنها الذي يلتهم قاطنوه لحوم أجسادهم، وينهلون من دمائهم، بحسب رواية المسافرين؟

نثرت في الأرض بذور أشياء هجينة، خلفها شعب ضل طريقه خلال هجرته، حرمه التاريخ بقسوة من ضوء العدل: أوعية طهي، ألحفة، بطاطين، قطع ملابس من أزمنة شتى، مواقد غاز، براد بلا باب، أحذية أطفال، أحذية برقبة من قياسات وأشكال مختلفة، خوذات جنود، دمية مبتورة منزوع شعر رأسها، شاه كانت تجز ما يشبه العشب، مربوطة بحبل بيد صاحبها الصلبة المتيبسة. تجبرك قوة جاذبة أكثر سلطة من الرعب نفسه؛ لكي تتوقف وتفحصهم جثة جثة، الأجساد الملقاة على الأرصفة، وفي النواحي ومنعطفات الطريق، وفي تقاطعات المدينة الشبح، التي دكتها القنابل وأجهزت عليها، والطاغية؛ طفل صغير، حفر الفوسفور في وجهه أخاديد، جفناه شبه مصهورين، يتدليان كأنهما قصتا شعر، عسكريان متفحمان بفعل سلاح تحركه أشعة الليزر، يمكن التعرف عليهما من خلال حزام الخرطوش وخوذتيهما عديمتي

الفائـدة؛ جذع جثـة مبتورة الأطـراف مكسوة بالكامـل بالذباب. يعاتبـك حدس لا زال مضطربا لكنـه حثيث؛ ليدفعك أن تتوقف هنا وتدع طريقك.

هل ياتـرى يرغب في أن يجنبك الانحدار المؤلم إلى الدرجات السفلـى من الجحيم؛ حيـث يتدفق نهر كبريتي يغلـي، سكانه فقدوا عيونهـم، بينما تلتهم حيات ضخمة السالف ذكرهم. يتملكك الحزن ويرسـخ فـي أعماقـك، يوعز بظهـور وشيـك لأخيلة أكثـر قربًا وإيلامًا، نبش القبور والجروح الغائرة والندبات المستحيلة. تتقدم مرتعشًـا، علـى الرغم من قيظ الضباب ونتانـة الجثث، نحو شبح سيدة منبطحة علـى وجهها، سيدة أنيقة تتلفـح بمعطف فرو أنيق، على رأسها قبعة من طراز الثلاثينيات.

تطوقهـا هالة من النور الوضـاء ينتشر حولها من دون غيرها، فيميزها الناظر عما حولها للوهلة الأولى، تبدو كأنها ترسل رسالة خصتـك أنت وحدك بها. يجمد هاجس ما قـواك، يستبعد النصائح والتحذيـرات، يرسخ في نفسك بحتمية الافتقـار إلى الإيمان. من هي؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تجرؤ على أن تدير الجثة لتكشف عن وجهها؟

أتخشـى ألا تعرفها بعد وقت طويل، علـى الرغم من صورها التـي تحتفـظ بهـا؟ أم تخشـى أن تعمـي بصـرك بجمـال محياها

واستدارة وجهها الممتلئ الذي أصبح كاللهب الحي؟ تحبس أنفاسك وتنحنـــي فوق حقيبة يدها التي ما زالــت تقبض عليها، وتتحقق من دقــة الذكرى الأليمة، بعيــدًا عن الرعب، جميــع هداياكم كما هي لــم تمس. أهي أم أشخاص بعينهم، لهــم مفاصل، أعصاب، دم، عمود فقري وعظام، أم هي رمــز وتجسد لجميع الأمهات اللاتي تفاجئــن بالقصف بينما يقمن بالتسوق فــي برشلونة، أو البصرة أو بغداد؟ ألم تتآمر على طيفها هذه الحقبة من الزمان؟ فأية شرارة تلك التــي غذت الكابوس الليلي وأعــادت الرؤيا الغليظة التي وجب أن تبقى دفينة في كثافة عمق الأرض؟

تغمضـن عينيـك، مدعومًا بالسكينــة والهدوء، تتجــول بخفة، بمحاذاة الأرض، فــي الطرق، المدافـن، والأضرحة. تكتلات المقابر التــي تجولت بها قبل سنوات مترسخــة في جسدك، خلال إقامة تشبعت وأثمرت تدريجيًا، لم تنسها ولن تنساها أبدا.

حيـن كنت متلحفًـا بغطاء متهرئ، مـا بين قبـر أجوف لرجل فارق الحياة منذ نصف قـرن مضى، وفراش من القش يرقد عليه رجـل عجـوز، عشت هنـاك جذبتـك وتخيلت مملكـة الأطياف، تحـررت من هيئتـك المادية خـلال الحلم، واتحـدت لوقت عابر بنخبـة الأرواح المارقـة المقيمين فــي «القرافـة»، يتلاشون في قبورها ونواويسهـا السرية كلما أشرق شعاع يـوم جديد. تملكتك الخفة، تنزلـق بخفة ونعومة من دون جهد فوق الدهاليز الصغيرة الوحيدة، القباب المضلعة، والمآذن الرشيقة، تنبش أخيلة جولتك النهارية وذكرياتهـا؛ طرق يكسوها التـراب، واجهات متهالكة، شجيرات هزيلـة، مخلفات، أنوال بدائية، أبـراج حمام، حدائق ومناطـق للسكن. يكسو نـور القمر الآن المساكـن المطلية باللون الأخضر والترابي، مزينــة الأفنية بالزهور والآيات القرآنية على الموزاييك، أوعية المياه وسعفات النخيل موضوعة فوق القبور.

انطفــأت علامات الحياة الزائلة بالمدينة في المصابيح، القناديل ومصابيــح الغاز. آوت إلــى منازلها عائــلات، وقطعان، طيور الحظيرة؛ لينعموا بالسلام وطراوتــه بعد سخونة الشمس والتراب وعنــاء اليوم. إنما هى ساعة السبــات العميق، حين يخرج الموتى مــن أضرحتهم، ويتواصلــون مع النائمين خــلال خيالات التهجد الليلي.

يتحسس علية القــوم الذين علقت في المقابر صورهم، يرتدون فيها المعاطــف والطرابيش الحمراء، غفلــة الحراس للاستراحة، فيشاركون بغم ظاهر في هذا المشهد الذي يغط في الانهيار والدمار المحتوم.

أتــراك تحلق الساعة، متمسكًا بجناحــي «إسرافيل» المهولين، مثــل جناحي ديــك السماء الأولــى ورأسه، التــي وصفها مؤرخو المعراج بأنها تصل إلى ما هو دون عرش الله؟

أم أنــك تحيا نشــوة الخفــة، والدعوة الموحيــة بالخطر وبهجة انعدام الوزن؟ لا تسهر نفس واحدة للاستماع إلى نشرات الأخبار عــن الحرب النظيفة، وآثار الأسلحة الذكيــة في مهماتها الجراحية بغرض التهدئة، إلا أن آثار الكــرب المنتشرة تثير قلق المواطنين بمشاهد الموت والخراب.

مشاهد يكسوها الرماد والرقائق المشتعلة. هل هذه المرافق هي مـا تزعج (أحمد) في حلمـه بينما يحتضن زوجتـه، ويتنفس أنفاسًا متقطعـة، لا يدرك وجـودك الماكر بعد طول غيـاب؟ استنزافك لخصوصيتـه جعلك تتخيـل سماع صوت المقـرئ، يرتل السورة السابعـة والستين في القرآن، في إحدى سرادقات الشوارع أعدها أقـارب المتوفى لإحياء ذكرى الأربعين. تطير رابعة والبسطامي في سرب من منحدر الجبل شبه العمودي، وأبراج القلعة وقبابها. أتـراك تحلم مثلهمـا، أم أنك تستمتع بنشـوة النعيم بعد أن تطهرت وصـرت شفيفًا؟ هـل تجـاوزت حدود الزمـان والمـكان بفضل الخيـال، فتخلط ما بين الموجود وما يتـم استدعاؤه بخفة من دون أن تلمس الأرض؟ وتشهد جنازة البسطامي في اللحظة التي يستمع فيهـا الحشد الذي تعلوه سحابة الطيـور الخضراء إلى آذان الصلاة ينـادي بها المؤذن، وفي هذه اللحظـة الإلهية، يرفع الميت الراقد يـده من الكفـن مشيرًا إلـى السماء، وفـي اللحظـة عينها، تطوق الظلال الشفافة قبر عاشقة الحـب الإلهي، فتلمس أركانه بأطراف أصابعها، التي تمسح بها برقة على وجهها ثم تجثو إلى جانب القبر، تتحسس كساءه، وتهمهم بصلاة خليط ما بين الابتهال والتوسل.

وماذا بشأن المفارقات التاريخية وتعارض الخطط، هل ترجع إلـى أداء الموتى خلال الأربعينيـة أم أنها امتداد لشمولية الظلال؟

تنتشـــي ويغمــرك النعيم لرؤية جمــال المقابر وسكونهــا، بواباتها الحديديــة، الدرابزينات، المسلات الجنائزيــة، البيوت الصغيرة تزينهــا رسومات الكعبــة والحج، وآثــار كفـوف مطبوعة بدماء خــروف الضحية على الجدران. لقد عــادت إلى جوارك، وبينما تشير إلى جسدك الراقد بباريــس خلال لحظات الهجرة المذكورة قبل قليل، تهمس وقد احتوت فــي إيماءة واحدة الكائنات والأشياء الحاضــرة في نصــك، عمياء هى العين التي لا تــرى ما الذي أنت بحارس له.

-27-

أخذ الصالون الصغير بمقاعده الوثيرة يمتلئ شيئًا فشيئًا في شكل نصف حلقة أمام التليفزيون، بجمهور من زبائن البار أو السائحين الجائلين، قبيل إذاعة الأخبار المتعلقة بوقف إطلاق النار، والنهاية الوشيكة للقتال.

توجد بين أناس غرباء عنك، محروم من قربها الحميم، ومن الرحالة السماويين الذين اعتادوا الالتفاف حولكما دائمًا.

تتابع الفواصل الإعلانية بتراتب، وفي النهاية تختتم بلحن البرنامج ومشاهده، ثم تظهر على الشاشة السيدة حاملة المظلة، ترتدي ثوبًا من الأورجانزا بنفسجيّ اللون، موشي بالدانتيلا وشرائط كبيرة، وتضع عقودًا زجاجية، وحليًّا أخرى، وقلادات، جوارب بيضاء وحذاء بكعب عال مزين من ناحية مشط القدم بأحجار وألماسات صناعية. وبعد أن أشارت بالتحية ناحية اليمين واليسار، جلست عند رأس الطاولة مثلثة الشكل، تصطف عليها الميكروفونات، ثم بدأت بتقديم المدعوين نجوم الجلسة، وهم من الأسماء اللامعة في الحياة الفكرية والأدبية، تمت دعوتهم لمشاهدة الظروف الراهنة على الهواء من خلال القمر الصناعي، ثم التعليق على الأحداث.

فيلسوف شعره طويل مموج يشبه جورج صاند.

عالم نفساني له العديد من الأعمال المرجعية الأساسية في التخصص.

عالم في السياسة، متخصص في دراسات الكرملين، ثم تحول للتخصص في الدراسات الإسلامية.

ويا لها من مفاجأة.

هذا هو الشاب ذو الوجه الضامر، متدثرًا في جلباب رث، يضع طاقية عفريت، يدخن نارجيلة «الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند باب الحمام.

بعد تتابع عدة مشاهد يظهر فيها جنود مبتسمون ومهندمون، مصحوبة بمواد توضيحية بأسهم تتحرك وأهداف تشير إليها أضواء تومض، وصور ناعمة لقذائف باليستية، دمار يصيب نواحي بيضاء نائيةً مجهولةً، تعود السيدة ذات المظلة وتعطي الكلمة للمدعوين.

جورج صاند: لا توجد حروب جميلة، لكن هناك حروبا عادلة، هذه بحث عنها أصحابها بكل عند وجهالة! حشدهم البدائي، وغرامهم بالطاغوت أخرجهم من التاريخ، كأنهم بقايا منصهرة بلا شكل أو هوية.

المحلل النفساني: ترتكز هويتهم على شبح سري يشكل أصلاً رمزيًا، نشيط بقدر ما هو كامن في اللاوعي. هو الحلم بالأمة الواحدة - الأم، اللغة، الدين، الأرض - متماثلة ونقية من دون تدخل «الآخر»، يفترض في نهاية الأمر غياب الأب وتسامي زنى المحارم.

عالم السياسة: ولم ينته الأمر بعد! من يضمن لنا أنه في المستقبل لن يظهر عبقري آخر؛ يخصص موارده البترولية أو ما شابه ليضرب بضربته في المجال الكيميائي، علم الجراثيم والأسلحة النووية، قبل أن يغزو جيرانه، ويهدد الغرب بالإرهاب، ووفقًا لوسائله، بالدمار الشامل أيضًا؟ على الرغم من أن هذا الافتراض غير محتمل على المدى القريب، فليس من الخيال أن يقع على المدى البعيد.

يظهر الشاب بجلبابه وطاقية العفريت

يــــا عبـــــــــــــاد اللــــــــــه، غيثوني

ذهول، سعال، أصوات احتجاجات، سباب؛ وإذا كان مجرد معتوه، فما هذا الهراء الذي يتلفظ به بينما يسير؟ ألا يوجد من يترجم هذه الرطانة؟ لماذا لم يحضروا شخصًا أكثر لياقة؟ أم أن مواطنيه جميعهم، لا يقلون عنه جلافةً؟

يضــع جورج صانــد والمحلل النفسي وعالــم السياسة نظريات جديــدة بشأن عقدة أوديب، الافتقار إلى النضج، التحجر، مرض جنــون العظمة، ونرجسية المنوميــن مغنطيسيًّا، لكن لا أحد يهتم: يتحرك الجمهور من القول للفعل، ويبدأ في قذف الطماطم والبيض الفاسد صوب الشاب «المورو» العربي صاحب الجلباب.

تجــذب السيــدة ذات المظلــة من حقيبــة يدها مبســم سيجار من العنبــر، وتضع فيــه سيجــارة فليبينية وتشعلها بولاعــة من طراز «رونسون»، ثم تزفر سحابة دخانية لتسترخي وسط هذا الصخب العام.

علــى ما يبدو، فلم تعــد تظهر على الشاشة، فتسيــر وتقف إلى جوارك تمور غضبًا للإهانة التي لحقت بكرامتها.

مــع التهاني، تقول لك: ألا تشعر بالخجــل من ابتعادك عن هذا الإجمــاع الخلقي البديــع الذي يتأســس عليه حاليًا النظــام الدولي الجديد؟

وماذا عن خلق النص الروائي، أليس مثله مثل الأربعينية؟

ألا يضطر الكاتب إلى الانعزال عن العالم في المرحلة المبهمة التي تسبق تكوينها؟ ألا يضطر إلى أن يحيط نفسه ومادته الروائية الخام بحبل صحي ذي حواجز للحماية؟ ألا تتطلب قدرة الكتابة التي تسبب العدوى - ويكون ضحيتها الأولى الكاتب نفسه قبل أن يتحول إلى آداة - أن ينسحب إلى عزلة شبيهة بعزلة نزلاء المستشفى، أو الرهبان الملبوسين بحضور الرب؟

تتطلب مغامرته الحمقاء جمع عناصر نصه وتنظيمها في إطار غير محدد ومبهم، وأن ينشئ بين علاقاتها خيطًا مثل خيوط العنكبوت، ينسج شبكة من المعاني تتجاوز الزمان والمكان، تجاهل قوانين المعقولية، نبذ الأفكار البالية عن الشخوص والحبكة، وإلغاء الحدود ما بين الواقع والحلم، قلقلة القارئ عن طريق تراكب مستويات التأويل وشهادات الأصوات الموثقة، استلاب ملكية الأحداث التاريخية وإشعالها وقودًا لخدمة المشروع «النص»، الحياة والموت والبعث لك وللآخرين.

ألا يتطلب تكثيف كل ذلك في موقع ذهني تحضيره بعناية؛ ليحتضن المرض المعدي ويحول دون انتشاره قبل الأوان؟

فمثـل جميـع الأوبئة، فـإن الوباء الـذي أزهر فــي خلاصة نبت الروائــي، يبحث بعـد الأربعينية عـن امتداده الطبيعــي في شكل القــارئ المتلقي لدعواه المعدية الخصبة. ومنذ أن يتولى هذا مقاليد مخاطر المغامرة، يعيش هو نفســه الأربعينية، معزولاً عن العالم في فقاعتــه الخاصة، منهمكًا فــي متعة العدوى الملوثــة. أربعينية الكاتب، أربعينية القارئ، أربعينية الكتاب، لا غنى عنها جميعًا في الأثر الفاعل لتحفيز وتحويل الكلمــة المكتوبة. وعين الخيال هذي في محيط الإيمان بالآخرة، ألم تصطبغ بعلمانية ما، على الأرجح مردها الروائيون أنفسهم، محط إعجابها.

نصحتـه زوجتـه أن يستقل الحافلة رقـم (93) عند بورت سان مارتيـن، قالت لـه: ستتـركك عند المـكان بالضبـط، لكن ولعه الشديد بالمتـرو كان أكثر قوة، من دون أن يعير التفاتًا لمضايقات تغيير الاتجاهات. غاصـ في النفق الأرضي الحضري من الفتحة الأقرب، اكتشـف بسعادة أن الباب الأتوماتيكي الصغير المتحرك آليًـا انفتـح أمامه من دون الحاجـة إلى بطاقة، كأنهـا دفعت مسبقًا باحترام من مجهول خارق.

بدا لـه الحدث بشـرى للخير، وبينمـا يقطع الرحلـة في عربة مزدحمـة، احتضن حقيبـة أوراقه وسجلاتـه؛ ليبرهن على صدقه ونيتـه السليمة خـلال استجـواب المحققين لـه. لم تنطـوِ الأسئلة الثلاثة المطبوعة على الآلة الكاتبة على صعوبات كثيرة، لكن بعد ساعـات من تلقي الرسالة الغامضة، عثر على سؤال رابع مكتوب بحبـر سري ثـم استبانت حروفه: «ما نوع الكتـاب الذي تقومون بكتابته، وما الدور الذي نلعبه فيـه؟». كان من المستحيل الإجابة عـن السؤال بشكل كتابي، فقـرر أن يلجأ إلى خيار كان مقررًا في صحيفة الشروط، ألا هو تقديم عرض شفهيّ للموضوع في مكتب محكمـة الحسابـات. ولكيلا يستسلـم للتثبيط ويحافـظ على رباطة جأشه، اعتبر الأمر بمثابة شرك ينصبه له «منكر»، كخطة لاختبار يقظة ذهنه وسخريته الفطرية.

وكما شـرح لها قبل رحلة العبـور ، فإن تجربتـه القصيرة مع منكر تكذب ، بشكل قاطع ، ما يشاع عنه من أساطير بشأن صرامته وخططه السادية المزعومة.

(لم تكن الأمور مع زوجته بمثل ذاك الوضوح)

تقـع المحكمة بالقـرب من المحطـة، توجه إليها سيـرًا منبسط الأساريـر ، ممسكًا بحقيبة الأوراق التـي تضم القرائن والوثائق ، هـدأ روعـه بفعل الأجـواء الطبيعية مـن حوله والمظهـر العادي للأشخاص الذيـن يقصدونه لسبـب أو لآخر. صعـد السلالم من دون أن يتـرك نفسـه للانبهار بعظمة الأعمـدة المنذرة التي تزين الواجهة، ولج القاعة الشاسعة، يحتشد بها الجمهور كالنمل، انتظر دوره في طابور أمـام نافذة الاستعلامات الصغيرة ، وتسلم بطاقة كارتونية صغيرة تشير إلى الطابق والممر ورقم مكتب الممتحنين ، وبطاقة أخرى ذات لون مختلف يظهر فيها رقمه المحدد. اصطحبه برقة مرشد لـه حاجبان ولحية شيطان ، من هـذا المكان المزدحم المزعج إلى الطوابق العليا ، وللوهلة الأولى تبدو مهجورة يسودها الصمت.

أشـار إلـى مقعد في طرف القاعـة؛ ليجلس فيـه وطلب منه أن ينتظـره هنـاك. وقـال: حينمـا يستعـدون سيبلغونـك. جلس بعد أن تمتـم بكلمـات الشكر ، واضعـًا محفظته فوق ركبتيـه، مستغلاً

الانتظـار ليستحضـر إجاباته بشـكل طبيعي. ولم يقلقـه الانتظار؛ علـم أن الممتحنيـن لـن يمنحوه وقتًـا إضافيًّـا، وفــي المقابل لن يقضيـا في الأمـر بسرعة على الرغم من المجهـود الذي يبذلونه. مـن وقت لآخـر، كان ينفتح بـاب في الردهة، ويطـل منه بشكل خاطف رأس امرأة للتأكد مـن وجوده، للحظة تلقـي عليه نظرة محايـدة وتختفي. وبطول وقـت الانتظار، نهضـ ليحرك ساقيه ويسير بضع خطـوات. ظل الممر مهجورًا، لكـن خلف الأبواب الصلبـة المصنوعة من خشب البلوط، سمعت حركات الموظفين، والمكالمـات التليفونية وصوت النقر على ماكينـات الكتابة. ومن أبـواب أخرى تـردد صدى صوت خافـت لأسئلة عبـر مكبرات الصـوت، تتقطعهـا شكوى وتأوهـات. تأكد من أن أحـدًا لا يراه وأرهف سمعه عنـد باب مزينة صفحته برسومـات لنساء ورجال عرايا، بفكي كلب، وأذن ماعز، وحوافر ثور، وصوف خراف؛ بالرغـم من بعدهم، كانـت تصل إليه أصـوات صرخات وأسى، ولفحات ريـاح مشئومة. وفي المكتب المجاور علقت لافتة بجميع اللغـات تحذر من أن هـذا المكتب مثل مكاتـب الجمرك، يضطلع بتسجيل جملة ذنوب الأرواح المعذبة وحفظها؛ ذلك حيث «يحبس التائبين البرد الزمهرير». إذا لم تخنه ذاكرته، ألا ينتمي هذا البيت إلى النشيد الواحد والثلاثين من «الكوميديا الإلهية»؟ وحين أوشك

علـى مواربة البـاب والتجسس على مـا يحدث بالداخـل، أجبره الصرير الصادر عن حركة المزلاج على التراجع والعودة سريعًا إلـى المقعد الذي حدده له الدليل. وقفـت أمامه سيدة معتلة المزاج تضع نظـارة. قالت: رقمك. قدم إليها البطاقـة وفتح الحقيبة على الفور ليظهر لها الشهادة الطبيـة ونتائج التحليل. بإمكان حضرتك أن ترى أن معدل الإخراج وكثافته طبيعيين، ولا أثر لأي اختلال أو إصابـة طفيليـة. وبالمثل لا أثـر لأي زلال، يكشف عن وجود خلل سرطاني أو التهاب ما بالغشاء المعوي المخاطي. تنحنح؛ فيما يتعلـق بالسؤال السابق، فإنه لو سمحت لي باتباع ترتيب مختلف، فبعـد أن فكـرت كثيرًا واستدعيـت ذكريات فصـول الصيف التي قضيتها مع عائلتـي، أستطيع الجزم بأنني مارسـت العادة السرية الأولى في سـن الثانية عشرة، أي في عام 1943، ربما كان ذلك في شهـر يوليو . . . إلا أن وجه الموظفة نافـذ الصبر والصارم، جعله يكف عن عرض حديثه:

أعتقـد أن الدكتـور نكيـر والدكتـور منكر يفضـلان أن أدون شهادتي بصفة شخصية.

فُتحـت جميع أبـواب الممر مـن دون مقدمـات، وبرزت من خلالها عشرات الرؤوس المتطابقة، بدت أصغر فأصغر طبقًا لبعد المسافة، مثل بهو المرايا في المهرجانات.

(أو مثل مشهد من فيلم « سيدة من شنغهاي» مثلما قالت زوجتك، إلا أنك لم تشعر حين دخلت الحجرة لتلقي عليك التحية، وقد قرأت الفقرة الأخيرة، من خلف ظهرك).

يقومون بفحصك من قمة رأسك إلى إخمص قدميك، بعين محقق ونظرة منتقدة.

صرخت الموظفة؛ ومن أخبرك أن نكيرا ومنكرا يعملان هنا؟ على الرغم من الأعداد الهائلة للمهاجرين التي نستقبلها هنا لسوء الحظ، فإن قدراتها لم تتمكن قط من دواخل حدودنا! وفيما يتعلق ببيانات سيادتك فهى لا تظهر في أي من أجهزة الكمبيوتر لدينا، وليس في إمكاننا أن نتحمل مسئولية ملفك، بالرغم من أصلك الكاثوليكي الرسولي الروحاني الأكيد. الأفضل أن تستقل الطائرة وتتجه مباشرة إلى القاهرة.

وفي المطار، ستجد من يهتم بمتابعة أوراقك. استقل «تاكسي» على نفقتك، وتوجه إلى المقابر الجنوبية: وستجدهما ليلاً بأحد الأضرحة أو في إحدى زوايا «مدينة الموتى».

تركت الأربعينية الخلقية للحرب أثرها على حياته، فطردت النوم من عينيه بضراوة، وقودت دورة مجرى أيامه بالأخيلة الدموية وراء الأحلام. تكثف الصمت غير المعتاد في مدينة «الرجال المقدسين السبعة» بحسبه مرت الأيام وتعاظم الوعي بالكارثة، التي ترسخت في نفوس السكان الذين كان يعبر بهم خلال زياراته المتقطعة إلى الميدان. الجولة العرضية للمشهد العتيق للضوء جعلته يتشبث بأمل الاستمرارية الوجودية، التي اهتزت بعنف وكانت محل اختبار من قبل العدوان المنتشر الذي اتخذه هدفًا له.

في مرحلة زمنية ما تركز اهتمامه على «صاروخ» لم يكن الشباب قد ازدراه بعد، ولم يتركه في وضع صعب وقاس عندما تجذبه بوصلة الرغبة، بحث ووجد في ذاك الصاروخ، وجهة الشمال لجولاته وصولاته.

خفة ظله وروح الدعابة اللتان يتمتع بهما، وأيضًا تواطؤه الماكر بعيدًا عن العرض اليومي في «الحلقة» اختصرت في فكرته عن السعادة. وقف في الميدان، وسط بهجته، معجبًا بهيئته

وغطرسته، رأسه الحليق، مؤخرة عنقه المتينة، أسنانه الذهبية، طلاقة اللسان، استعراض القوة، ومتانة الفحل الانكشاري. تراجع كل هذا إلى الوراء، بعيدًا جدًّا إلى الوراء، مترجلاً بفعل خفة الزمن الذي يماثل هروب أيل سريع.

والآن لم يعد يلتقي بغير الأشباح، مثلها مثله انبثقت عن الضباب، وجوه تكسوها صرامة بالغة، مؤمنون مخلصون في انتظار نداء المؤذن، باعة يجلسون على عتبات البازارات المهجورة، عجائز وشباب ملتصقة أسماعهم بالمذياع. اختفى السائحون في الأسواق: الشرفات البانورامية لفندقي «جلاسيى» و«أوتيل دي فرانس» فارغة تمامًا.

تأمل بعمق رجلاً محكومًا عليه بالإعدام، الأرداف العامرة لسلة الجبال المكسوة بالثلج، تتلألأ ضياءً، تطل من خلف سماء صافية. حيا بإيماءة من رأسه السادة الجالسين بالمقهى، ثم بحث عن الاقتراب المطمئن من صوفي الحلقة الأخير «الشرقاوي». وجده في مكانه المعتاد، على سجادته إلى جوار الحمائم المروضة، وطواقيه المطرزة بقواقع الحاج، الجلباب المرتق البائس، ورأسه الأشعث كثيف الشعر، محيا عابس لكنه مشبع بعذوبة سرية. جلس إلى جواره من دون أن يستأذن منه، منتبهًا إلى ترتيل صلواته

والأدعيــة الحارة الصادقة للحب والرحمــة. هل هناك بين منطق الحــرب ومنطــق المــال إمكانية وإن كانــت طفيفة لهــذه الكلمات الأساسية ؟ تعرف إليه الشيخ الكهل فتوقف عن ابتهالاته ليقبله.

تسرب إلى جسده شعور بالأمان والصداقة، كأنه مسكن بعد ألم حاد وعصي. بدا أن هدوء «الشرقاوي» ولطفه ينتشران في الحلقة ويكسوان دائرة المشاهدين بجمال معنوي رقيق.

حيــن لمحهــا في هيئتهــا الشفافة، وســط الحلقة، لــم يشعر بأية دهشــة، فقط السعــادة لمعاودة رؤيتها، في مدينــة، دون شك في ذلك. ارتدت قميصًــا بسيطًا وسروالاً وبدا عليهــا السكون، تمامًا مثلما كانــا ينتظران لحظة الخروج من القاعــة، منهمكة في قراءة «كيبيدو»، بين هــواة الموسيقى، من بورتوريكو والزنوج، على العشــب تنعكس عليه أشعة الشمس فــي «واشنطن اسكوير» بجوار الجامعة.

جلسا في حجرة المعيشـة يعلقان على أحداث الحرب الأخيرة- غلفهمـا صمت غير معتـاد لمدينة بدت بعد الأخبـار السريعة كأنها خاضعة من تلقـاء نفسها لرعب حظر التجول، إلى أن رن الهاتف فجأة. رفعت زوجته السماعة وجعلتها لصيقة أذنها. قالت: لا بد أن المكالمة خارجيـة، فالصوت غريب جدًّا. جذب هو بدوره نسخته ذات الحواشـي (دانتي وأخـذ يقرأ بعد عدد مـن المرات لا حصر لها وصـف حلقة الجحيم التاسعة؛ محـاولاً استقراء توافقات جديدة بينهـا وبين «سقر» و« تارا» قصر الشيطان ومحل جيوشه بحسب النسخ الأولي من المعراج. قالت زوجته بعد برهة: نعم، إنه هنا. أعطتـه السماعة وهـي تغطيها بكفها وتقول: إنـه اتصال من مكتب السيديـن «نانيتـر» و«مونار»، لـم أفهمهما جيـدًّا، على أي حال إنهـا مكالمة من مصر. شعر بقلبه ينتفضـ، واحتاج لدقائق ليملك أعصابـه، تنحنـح قبل أن يقـرر الحديث. رد صـوت نسائي حاد وصارخ: أهلاً، دقيقة مـن فضلك، لا تذهب. مضت برهة زمنية كأنهـا بلا نهاية يصاحبها صوت احتكاك معدني، وصرير وفقرات من عبـارات باللغتين العربيـة والإنجليزية. يتـردد الصوت بين لحظة وأخرى، لا تغلق الخط، نحن نبحث عن صاحب الاتصال. وينقطع الصوت من جديد. حبـس أنفاسه وواصل الترقب، اعتقد

أنــه يسمع صــوت انفجــارات غاضبة مبعثهــا الريــاح، أصوات مبتهلــة، تأوهات بشرية، انفجارات هائلــة لمحركات. لاحظ؛ أنه على الرغــم من ابتعاد صــوت عاملة السنتــرال شيئًــا فشيئًا، فإن أصوات الضجيج والصرخات تحتدم وتكتسب قربًا يثير القلق. بدا كأن السماء تمطــر ألسنة من اللهب، وأن الرمال تشتعل مثل مواد الحريــق، هل كانــت عاملة السنترال تعبر عــن نفسها بهذا الشكل؟ أو أنهــم أوصلوه عن طريق الخطأ بأفران عالية وحاملات للأثقال فــي قلب مصنع للصلب؟ أو أن فضاء يوم القيامة منتصب برافعات للهدم؟ صرخ: يا آنسة. لكنه لم يستقبل سوى أصوات هائلة صادرة عن المطــارق والمثاقب الآلية تدك الأنقاضــ. وهذه الآيات التي وصلت إلى مسامعه، هل صــدرت عن أجساد مدفونة عاجزة عن نفسها، وسط الغبــار وقعقعة الماكينــات الضروس؟ ضاع البلاغ الآلي وسط هذا الخليط المفــزع من العواء والتوسلات والنحيب. ما الذي يجب فعله؟ قطع الاتصال؟ ويواجه بعدها خطر إهانته لهيبة من وكرامته يختبرونه فيتحولون ضده؟

فلربما يسعيان إلى إخضاعه لهذا الامتحان حتى يتحققا من مدى صبره واحترامه لمكانتيهما.

بــددت شكوكه قهقهة عالية تردد صداها، كأنه صادر من كهف أو نفــق عميق. من القادر أن يضحك، علــى هذا النحو، سواهما؟

تأكـد من أنهما في الطرف الآخـر من الخط ، جعله هذا يشعر بحنو عميـق . تساءل في سعـادة: من منهمـا سيبدأ في السـؤال؟ إلا أن المحادثـة انقطعت مـن دون مقدمات . مكث لبضع ثـوان ، أسيرًا للإحباط ، ثـم صرخ بكل ما أوتي من قوة: يـا آنسة ، لو سمحت ، لقـد انقطع الاتصال ، هل تسمعيني؟ بيد أنـه لم يسمع سوى صوت المجيب الآلـي ، الذي أخذ يردد بالعربية مـن دون توقف: بسبب انشغـال جميع الخطـوط نأسف لعـدم استقبال مكالمتـك ، الرجاء الاتصال في وقت لاحق .

انحرف عن الطريق المستقيم الذي تخلص فيه من نعليه؛ ليصل إلى الأفـلاك المضيئة التي وصفها « ابن عربــي» ، تخيل أنه ولج داخل مشهد لأرض سفلية، بـؤر مكسوة بنباتات متشابكة معروفة في بلاده باسم « الجندرة». لمح عن يمينه في مجال السماء الأولى مـلاكًا نصفه الأعلــى ثلج والسفلى نــار، يدعو فــي أناشيده الخلق كافة، ســواء كانت أجسادهم رقيقة أو بدينة، ليصهر عطف قلوبهم في جسم واحد، مثلما في جسده؛ حيث يتحد الثلج بالنار بالرغم من طبيعتهمـا المتناقضة. أخذ يحصي العدد القليـل من المسافرين إلى الطريق المستقيم، يبتعـدون شيئًا فشيئًا نحو صراط النور: عرض عليهم أحدهم أكوابًا من العسل والخمر واللبن لتروي ظمأهم، غير أنهـم اقتداءً بالنبي، تخيـروا اللبن الحليب بامتيـاز. إلا أن عقبات الطريق المتموج الوعر، تحيط بها أسوار الشوك غارقة في ظلام اصطناعــي، كانت تجبرهــم على المضي قدمًا بحــذر بالغ، خشية السقوط أو الانغماس في إحدى الآبار الجانبية ،التي تعج بالثعابين والحشرات.

بينمــا تابعت هى فريق الحجاج إلــى درب النور، فأومأت إليه بإشارة أن يعود أدراجــه. بيد أنه، لسوء الحظ، لم تطاوعه قدماه مثلما فــي رؤيا السائريـن «لابن عربي» في «سَلــي». حينئذ لمح

السيـدة ذات المظلة، ترتـدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشـــى بالدانتيلا والشرائــط الكبيرة، تتحلى بعقـود من الخرز، وميداليات، وأحجار كريمة، وجوارب بيضاء، وحذاء ذي كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة.

كانت تدخن سيجارة مثبتة في مبسم، تحرك مروحتها بغضب، كأنها مختنقة من الحر القائظ.

Bonjour l'ami, ne soyez pas trop pressé! La route est trés longue et fatigante. Vous ne voulez pas boire un verre avec moi?(5)

(أتظهر مرة أخـرى هنا؟ ألم يتركها بصحبــة المتخصصين في دراسات الإسلام خلال الفقرة التليفزيونية؟)

Hep jeune homme! Si me je permets de vous apeler comme ca en depit du fait que vous n'ayez plus vingt ans c'est parce que vous conservez le charm et l'espirt de la jeunesse, sa seduction!

J'aimerais pouvoir parler avec vous dans un

(5) لا داعي للاستعجال، فالطريق طويل ومرهق، ألا تريد أن تشرب كأسا معي؟ (المترجمة)

endroit plus intime …[6]

تناسبت عيناها الجاحظتان الزرقاء اللون، المحاطتان بحاجبين اصطناعيين وتجاعيد غائرة مع فمها الشره النهم، وأيضًا طرف لسانها المتعرج وخلجات امرأة وقحة داهمتها السنون على حين غرة.

Je connais un motel pres d'ici.

Chambres tout confort, boissons, lumiere indirecte, metals aquatique, videos porno…[7]

وغمزته بعينها بحركة تشبه الكاميرا بين لقطة وأخرى.

Venez, Je vous prends par le bras! Il n'ya rien de meilleur au monde qu' une bonne partie de Jambes en l'aire avec une experte comme moi![8]

ماذا عن هيئة وجهها الشبيهة بالعرائس المتحركة، هل ستمتد؟ أبعد وجهها عنه بصفعة من يده، واستيقظ في هذه اللحظة عينها.

(6) ها.. أيها الشاب اسمح لي أن أناديك هكذا رغم أنك لم تعد في العشرين من عمرك، لأنك محتفظ بروح الشباب وإغوائه! (المترجمة)
(7) أعرف فندقا صغيرا بالقرب من هنا؛ حجرات مريحة ومشروبات وإضاءة خافتة، ومرتبة مائية وفيديوهات إباحية. (المترجمة)
(8) تعال، سآخذك من ذراعك! فلا شيء أفضل في العالم من جولة ترفع فيها ساقيك مع خبيرة مثلي. (المترجمة)

كنـت في منزلك بباريـس، ترقد بجانب زوجتـك، منهمكًا في الكتـاب الـذي أنت بصدد تأليفـه، وفيما أنت في غفـوة، ظهر لك شـاب متين البنية طويل، صدره قوي عريض، أعضاؤه مشدودة رشيقة. يلمع جلده بوميض فوسفوري، فأدركت حين رأيت رقته وخفته، أنـه الشخص نفسه الـذي التقيت به فـي «الحمام». قال: انهضـ، ضع ملابسـك، واتبعني. أطعت أمـره - متعمدًا أن تطأ الأرض بخفة، وتبعته إلى المكتب. هناك، أشار الشاب المجهول بإصبعه إلى الطاولة التي ستعمل عليها، وأمرك أن تجلس. لمحت بيـن الملفات رزم الأوراق الهولندية الفاخرة ريشة شفافة، طويلة وعريضة، تضاهي في طولها مسيرة ليلة كاملة على الأقل. أمره: امسـك بهـا وابدأ فـي الكتابة مـن دون توقف حين آمـرك بذلك. أطعتـه، يملـؤك الرعب والإجـلال، وبـدأ يملي عليـك بصوت ثابت، محددًا النقاط، الفصلات، الأقواس، الشرطتين، علامات الاستفهام والفواصل البيضاء، والـ32 فصلاً التي تشكل هذا الكتاب حتى هذه اللحظة.

كان الفتى يرتفع في المكان، ويقترب منك بالسرعة نفسها التي ينطلـق بها من الأرض للهواء، متكئًا على بساط غير مرئي. على الرغـم من استغراقك فـي مهمة الكتابة، فقد لاحظـت جسده شفيفًا

فريـدًا: فكنت قـادرًا على رؤيـة قلبه المضـيء، ونخاع عظامه، مثـل الخيط الأبيض داخل مقبض من الكريستال. حتى إنك خمنت أفـكاره - مثلما قرأ هو أفـكارك - إلى الدرجة التي كنت تسبق فيها ما يمليك، فتستبق الجملة التي يوشك أن يمليها عليك. كانت المهمة شاقة، لكنك لم تشعر بأي تعـب. كان دنوه منك والشذى المنبعث منه يغرسان في نفسك إحساسًا بالرقة، النداوة والأمان.

ظللـت طـوال الليل تؤلـف الكتاب فـي حالة مبهجـة ومتأججة فـي الوقت نفسـه. وحين شقشق الفجر، حيـن أضفى شعاع الفجر بصيصه على الأسقـف الأردوازية، ودعك رسولـك بإيماءة من رأسـه وتبخر في الهواء مثل إحدى شخصيات شهرزاد في مخادع الخليفة العباسي.

رجعـت إلى غرفتك فوجدت زوجتك نائمـة في وضع جنيني، غير أنهـا استيقظت حين تسللت إلى جوارهـا، وسألتك عن مبعث تهيجك واغتباطك. فحكيت لها ما جرى. لم تصدق ما سمعته منك، ونصحتـك أن ترقد وتستريح لبضع ساعات حتى تعوض سهرك. لكنك رغبت في الاتصال بالصديق الذي يكتب نصوصك على الآلة الكاتبة، وتسلم له مخطوطك الذي أملاه عليك الملاك.

صاحت: هل أنت مجنون؟ سيعتبرك معتوهًا ويضحك منك! من سيعتقد أنـك ألفت الكتاب خلال جلسة واحدة فـي ليلة وحسب؟ ألا

تعتقد أنه سيخبرك أن ما تحكيه ليس إلا ترهات وتخاريف؟ ولتثبت لها أنك لم تكن تحت تأثير حلم، ذهبت إلى مكتبك وأحضرت الدليل لتريها إياه. حينئذ فقط وقعت في حيرة، مثل التي تملكت ابن عربي حسب اعترافه، حين اكتشفت اختفاء الريشة المتألقة وبقاء الـ32 فصلاً مكتوبة على الماكينة على حالها.

أما ما قمت بإضافته فلم يكن غير مواءمة نصية من كتاب «المعراج» الذي أمر بترجمته الملك ألفونسو العاشر الحكيم، الذي استخدمه دانتي ليؤلف كتاب «الكوميديا الإلهية».

بعد ذلك ، بعد فظاعة ما حدث ، أخذ يبحث شاخصًا إلى الماضي ، بمفرده في البداية ثم بصحبة زوجته ، يرصد العلامات المشيرة إلى وداع وشيك وبوادر الهجرة. يتذكرها بينما؛ هى جالسة إلى جوار الطاولــة المنخفضة في المكتب القديم ، وقــد ارتسمت على وجهها الابتسامــة الواثقة نفسهــا في الصــورة التي يتأملهــا ، وهي تدخن سجائر «الجاولويسيســ بلوز» ، أو بينما تطفئ السيجارة بعناية في المرمدة الافتراضية.

كانــا يتحدثان عن كتاب «الكوميديا الإلهية» وعلاقته بالتصوف الإسلامــي. أخذت تقرأ – بينما هــى معلقة بحساب عكسي لا يرحم لبعضــ نبضات القلب القصيرة الهشة – «وهى لا تدري» – قرأت منتشية شعر « ابن عربي»:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعًى لغزلان وديرًا لرهبان

وبيتًا لأصنـــام وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّي توجهت ركائبه فالحب ديني وإيمـــاني

فــإذا كان غطاء الرحمة يشمل كل ما هــو مخلوق ، بما في ذلك الأحجــار الجمــاد نفسهــا– وهى جامعــة مثل غيرهــا– ويعظمون الوجــود ، ألم يمزق «ابــن عربى» حجب «دانتــى» وحدوده في

رؤيتـه لما وراء القبـور؟ كانت تنظر عبر النافـذة المواربة تتطلع إلـى الأسطـح الأردواز، وإلى خليـط السحب المتنوعـة الملونة بأشعة الشمس، تعتريها عاطفة لم يفسرها هو نفسه. على نحو جيد، منهمـكًا بشكل دائم في البعد الأدبي الصـرف لدردشتهما. انطلقت حينئذ تتحدث بهدوء عن عنف العالم. لم تقصد عنف الكوكب الذي يعيشـان عليه، بـل الكون الشاسع بلا حـدود؛ كواكب نارية تبعث أشعـة قاتلة، نجومـا ميتة وبـاردة، أجراما تبـث عناصر مشعة، تسبب إشعاعات ذات طاقة هائلة غير قابلة للتفسير، كتلة من السديم الحلزونى للمجرات، وثقوباً سوداء تشد جاذبيتها إلى قلب الأجرام السماوية القريبة. عنف هائل وحشي لا مثيل له ينتج عن نجوم بعيدة عـن مجراتنا الصغيـرة بملايين السنوات الضوئيـة، فتشعل جزءًا طفيفًـا من طاقتها في أثناء وجودها المؤقـت لتتلاشى إثر انفجار لا يمكن تخيل أبعاده، فتسبب صدمات وحشية، وفيضاً من الأشعات ذات قـوة ساحقـة، ومعدلات سرعات تسبـب الغثيان، وكوارث متواليـة في عالـم الضوضاء والغضـب، هذا العالـم المترسخ في الفوضى، الدعوى، الالتهام، اللقـاء الأعمى للقوى المتعارضة، كل مـا وصفـه «روخاس» في عملـه «لاثيليستينـا». أتذكر ذلك؟

توقفت عن الحديث. وجال في الهواء سؤال لم تستطع صياغته؛

أمـن الممكن أن توجد ذرة مـن الحب والطيبة في فلك لا حدود للإبـادة والرعب فيه؟ صمـت كلاهما، وأخذا يتأمـلان تشكيلات

السحب غريبة التكوين المتوعدة في كتلتها السوداء المحكمة. وأخيرًا، قالت بينما تترك مجلسها: سوف تمطر.

(أترى هل ترك لها «الدليل الروحي» لمولينوس، ثم دعاها إلى العشاء في اليوم التالي؟)

أجابت زوجته: لا، بل كان ذلك في اليوم نفسه. قضيتما الأمسية تراجعان الترجمات، وطلبت منها البقاء معنا. أذكر أنها كانت ترتدي كنزة صوفية، وبنطالاً جينزاً، والسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصورة.

هل كان في سلوكها وحديثها شيء ما يجذب الانتباه؟

بحثا واستحثا ذاكرتيهما بشأن تلك الليلة، والحديث مع المدعوين الآخرين، والإشارات الأدبية والسينمائية، من دون ملاحظة أن ثمة وجود غير مرئي كان يترصد لهما من الخلف، حاضرًا في المشهد، قبل أن يتملك جسدها ويكلل هامتها دائمًا بهالة الشباب الغض الدائم أمام أعين أصدقائها.

(لم يكن هناك ما يدعو إلى التنبؤ بهذه النهاية المباغتة، أو إلى الخطوة الوشيكة نحو عالم الخفة).

بينما تودعك طلبت منك كتابًا، وذهبت لتبحث عنه في الاستوديو.

(كانت زوجتك على حق: في ذلك الوقت أعرتها «الدليل» وقبلتها في وجنتيها أمام باب المصعد).

وتحـــررت أخيرًا من مضايقة السيـدة ذات المظلة، فتتمكن من التجول ملء ذراعيك، فتطوف فـــي الفضاءات السماوية الرحبة، وتتيقـن من دقـة ما جـاء في نسختـك من كتــاب «المعـراج» أو «الصعود».

ستسافر بمفردك مثلما اعتدت في الأرض، بعيدًا عن الجولات السياحيــة وحافلتها مكيفة الهــواء، والخلفية الموسيقيـــة والتعليقات المسجلـة قبــلاً، والمرشديـن السياحييـن الذيـن يتحدثـون لغات عــدة. مستغرقًا في قراءتك عن عالم الآخـــرة، تتوقف عن الحوم والارتفاع كأنك ريشة لتنهمك في تأمل الملائكة النورريين، الطيور ذات الخضرة العجيبة، والأنبياء جلوس على مقاعد مضيئة، ملفوفة رؤوسهـم بأقمشـــة صافية رائقة، أرواح من نــار، حدقات عيون تطــرف سبعين ألف مــرة في اليوم من خشية اللــه، أهداب طويلة باهــرة وجميلة مثل قوس قزح، مؤذنون صوتهـم عذب ينادون الأرواح المباركة إلى الله، فتهرع آلاف الخلق وتتقارب تبتهل التوحيـد الإلهي من جميع الجهــات. تلج إلى فيضهـم تلمح جسرًا بريقًا أكثـــر رهافة من الشعرة أو من حـــد السيف، تعبره الأرواح البائسة وتحاول أن تتوازن، مخافة السقوط في هاوية جهنم. تقلب صفحــات الكتاب محــاولاً أن تتخيل الملائكــة ذوات السبعين ألف

وجه، لكل وجه سبعون ألف عين، مثلها مثل المشاهدات المجهرية التي ستستقطب مواد متعددة، بانكساراتها الضوئية الرائعة، التأليه البصـري، والجمال المحيـر، ستلمح ثلاث شخصيـات مألوفة، يجلسـون إلـى طاولة دراسيـة مرفوعة على سقالـة، فيبدون مثل الناجيـن من الغرق الذين احتموا بجزيـرة مهجورة. تقترب منهم فتتأكـد أنهم «جورج صاند»، وعالم السياسة، والمحلل النفسانـي، لايزالون منهمكين في مناقشاتهـم النظرية، على الرغم من أنه لا أحد يحيط بهم أو يعير كلماتهم انتباهًا. وبدا هناك الشاب ذو الجلباب الرث هضيـم الوجه، يضـع طاقية العفريت، ويدخـن نارجيلة «الكيف» بينمـا يجلس القرفصاء عند بوابة «الحمام»، يقبض عليهم مع طاولتهـم واضعًا إياها على صفحة يديـه، ويبتسم ببشاشة طفل تملك عشًا للعصافير.

هل كان يحميهم من خطر ما؟ أم سينفخ فيهم ليذروهم مثل زغب النباتـات؟ أم ترى سيستيقـظ قريبًا في خصـه الحقير في «رياض الزيتون» ويقص على حارس الحمام فحوى حلمه العجيب؟

هل ستتجلي في حلمه؟

سؤال يفزعك: من الحالم ومن المحلوم به؟

-36-

جـذب الثور من قرنيـه، وتعلق بأهداب الطائـرة، وطار إلى القاهـرة. كانت المسافة مثل حلم قصير، تمكن من خلاله من تأمل تفاهة العالم، ضئيلاً مثل حبة الخردل في كف اليد. وعند وصوله، وقـع كل شــيء مثلما تنبـأت موظفـة الحسابات. لمـح بين رجال الشرطـة والمحققين عند نقطة رقابـة المسافرين شاب الحمام تكلل هامتـه هالة من الضيـاء الرصين. أدرك أن الشــاب كان يخترق الأجساد مـن دون أن يلحق بها ضررًا، ومـن دون أن تشعر بها أنفسهـم. قرر أن يتبع خطواته ويحذو حذوه ويفعل مثله. وبمجرد أن لمســ الآخر نعله مـن الأرض، يطأ هو مكانه فـي التو، يعبر الحواجـز، واحدًا تلو الآخر على النســق نفسه، من دون أن يختم لـه أحدهم جـواز سفره، أو حتــى يلاحظ دخولـه. توقفت سيارة أجرة سوداء لامعة، مظهرها عظائي نهري حذر، تنتظر عند باب مغـادرة المسافرين وانطلقت حال ركبا فيهـا. عبرا بسرعة مدينة مهجـورة، تشبه المدن قبل الإفطار في شهر رمضان، فلم يصادفا سيـارات أخــرى أو أية إشــارات للمــرور، كان السائق يضحك ويصفـر ويصر على أسنانه، ويصــدر أصواتًا من حلقه، ويتنفس محدثًا ضجيجًا؛ كأنه ملبوس بأمل مرح وفوضوي.

أو كان يـدري إلى أين يسيـر بهما؟ لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم يشـر حتى إلـى نقطة مقصده، لكن هذا الحـوذي - فضل أن يطلق عليه هذا الاسـم - كان يعرف طريقه جيدًا وبدا راضيًا عن المهمة التي يقوم بها، ومنغمسًا في جولته الليلية والاستمتاع بعنفها.

هل واجـه جسدًا خفيفًا من البـرزخ، أم كان تجليًّا من تجلياته؟ حـاول عبثًا أن يكتشف صورتـه في المرآة الكفيفـة التي تعكس ما في الخلـف، بيد أن العمامة التي اعتمرهـا جنبته نظرات الآخرين الفضولية. هل كان يمتلك موهبة الكلمة، أم فقط يقدر على إصدار هذا السجل من الأصوات الخام، التي يؤديها من تأثر لرؤيا مبهجة أو من نشوة الإيلاج؟

مضـت المركبـة تقطـع بنعومـة ملغـزة الطريق عنـد ضريح «قايتبـاي»، وعلـى اليسار منها جبـل «المقطـم» المقدس، تسير السيـارة بمحـاذاة الأبـواب والأسـوار الخلفية للقلعـة، ثم تنحدر نحـو «باب القرافـة»، فتتوغل فيه، وتستقر فـي النهاية بـ«مدينة الموتـى». لم ينر ضوء القمر الآثار الشاهدة والنصب التذكارية، أو قبـاب الأضرحة المخططـة، أو الشوارع المغبـرة القريبة من مسجـد «الإمـام الشافعـي». لاحـظ أن الحوذي أخـذ يسرع في صيحاتـه، واللهـاث المتشنج حيـن انحرف جهة اليميـن ليخترق الطريق، الذي عبره من قبل في الحقيقة والحلم، نحو المدفن الذي

نـــام فيه خلال إقامته السابقة. تعرف عليه على الرغم من الضباب الكثيف، فتلمس البوابة الحديدية التي يسكّرها الكهل بحرص.

كانت مفتوحة فدفعها ثم أغلقها خلفه. وهجره رسوله والحوذي، سمـــع ضجيج السيـــارة وهي تنطلـــق وتبتعد عنه فـــي سرية. تسلل بخطـــوات هادئة صوب الخصـــ الذي يأوي فيـــه الحارس شيطانًا فـــي قاع بئر. أتـــرى هل اتخذ الكهـــل سبل حيطتـــه الفطرية بترك الباب مفتوحًـــا أم أن المضيف أعد مفاجأة ما بالتواطؤ مع الحارس المشاغـــب الشيطانـــي؟. واصل سيـــره إلى أن بلـــغ السلم ومدخل الضريح، ثـــم دفع الباب برفق متلمسًا يبحـــث عن فراش الحارس إلى جوار بلاطة المدفن الصلبة. لا يزال العجوز في مكانه كما في السابق، تدلل على وجوده أنفاسه المتقطعة. استعد ليرقد إلى جواره حيـــن سمع صوتًا جبارًا يأمره بغلق القبر. أطاع الأمر بسرعة فيما كان يحاول أن يحـــدد وسط هذا الضباب الكثيف والصمت المطبق مصدر الميكروفون أو مكبـــر الصوت الذي صدر عنه هذا النداء. وفجأة أضيئت شاشة تليفزيونية.

مستلقيًا في قبرك، مثل ميت.

(من أسبل جفنيك، وسد فتحتي أذنيك وتجويف أنفك بالقطن، وربط ساقيك وفكيك بشريط، وشبك يديك على صدرك ووجه جسدك ناحية اليمين في اتجاه القبلة؟)

تتأمل خيالات خراب ودمار: أسوار من أحجار سوداء، واجهات منهارة، ركام مختلط من أسلاك التليفون والكهرباء، حفر ضخمة من أثر القنابل، مداخن محطمة تطوقها أبخرة صفراء سامة. تدور الكاميرا بحركة بطيئة في شماتة، ووسط مشاهد النيران الشبيهة بيوم القيامة، والصخور الكبريتية، والآبار تلفظ ألسنة النار على خلفية شمس حارقة وسوداء، أشواط نهارية تظلم تدريجيًّا، وسحب كثيفة ومعتمة، أضواء قاطعة تنبعث من الأرض، ليل اصطناعي مخيف. هل تنفخ رياح عقيم، صلبة وقاسية مثل امرأة عاقر؟ سيقول الصوت: لا، هذه ليست رسومات «دوري» أو لوحات «بوسكو». لا تبحث في «أناشيد الجحيم» أو «المعراج»، يظهر نكير ومنكر يضحكان خلال التشويش الذي يعترض الشاشة.

انظـر . . انظر جيـدًا لما صنعـت أيديكم، فما الحاجـة إلى أن نكـرر ما اخترعتموه أنتم ؟ نيران، ملايين البؤر النارية من جميع الأحجـام والأشكال، ألسنة لهب متموجـة وحادة، فوهات بركان تصـدر الكبريت الأحمـر، مخلوقات منصهـرة، أجساد مشوهة، وأخـرى لأطفال ونسـاء يحترقون مثل القطـن المندوف، دوائر «دانتـي» التسعة، ودرجـات جهنم السبعة في «كتـاب المعراج» بتعدداتها المتنوعة جميعها حاضرة هنا. إلا أنكم قمتم بخلط الأبرياء مـع المذنبين فعاقبتـم الأوائل، وكللتـم رؤوس المذنبيـن بأكاليل الغار.

أمعن النظر في هذا التجمع الفخور لآباء القذائف الباليستية ذات الرؤوسـ الكيميائيـة والنووية، والقنابل عديمـة الضغط والإبادة العلمية المقننة، تأمل هؤلاء المصنعين والخبراء ومصممي الأسلحة الذكيـة والنظيفة، التي توجه بأشعة الليـزر والشاشات. هم وقادة الطائرات الذين يلقون قذائفهم، ويبذرون الموت في الأرض من دون مبالاة مثل «ربات القدر». سوف يتألمون من عذاب خاص يجهله مؤلفو الكتب التي تشبعت أنت بها . واحدة من هذه الطائرات غير المرئية التي لا يتمكن الرادار من رصدها، يصوبون ضرباتهم ناحية هدف طاهر، غير معروف وبعيد، بأمر من القيادة العليا من دون التنبه؛ أن الشحنة القاتلة تتوجه صوب منزلهم.

أجل صوب أسرهم العزيزة التي يحملون صورها في محافظهم، أو يلصقونها عند مربع أجهزة التحكم في الجهاز، هذه الوجوه العذبة الضاحكة لأولادهم وزوجاتهم. تأمل وجوههم التي سحقها الرعب مصحوبًا بيأس أطرافهم المتشنجة وعجزها، وأفواههم المفتوحة على نواح بلا طائل، قبل أن تسحقهم الأسلحة الجديدة الفتاكة وتفتتهم.

مشهد استغرق ثواني، ولكنها ثوان ممتدة بلا نهاية، وتتكرر تريليونات المرات إلى يوم الدين.

تتردد ضحكات منكر ونكير في القبة وتتلاحق في صدى الصوت، فيما يبث التليفزيون مشاهد يختلط فيها الرعب بالحنان والسكون، ثم يقولون إن العقاب القاسي سينال من الأصوليين وتقنيتهم العلمية.

انتهى الشريط، وابتلع الظلام المدفن. شعرت بالقلق والخوف من أن يتركاك من دون أن تخضع للفحص الإجباري، فرفعت صوتك لتسأل عما قررا أن يفعلا بك: لقد أتيت برغبتك لتعرفه، لتعرف مصيرك، ولتخرج نهائيًا من الأربعينية.

تضاء الشاشة مجددًا، وتقرأ الرسالة الموجهة إليك: هذه مجرد رؤية. نحن بانتظارك هنا حين تموت بالفعل. بينما تنفصل عن حلمك، تسمع إلى جانبك شخيرًا خافتًا محتملاً للشيخ الكهل.

انتهـت الحـرب وحـل الشتات. أخـذ يتابـع من نافـذة منزله قافلـة الهاربيـن التعسة، فيما ألصـق أنفه في الزجـاج الذي كسته حدة أجـواء الفصل بالضباب. فـي البداية بدت قافلـة السيارات، الحافـلات والسيارات الرياضية الصغيـرة المحملة بكومات متاع وعائلات، ثم عربـات تجرها الحيوانات، محمـل عليها حقائب، وأطفـال، وخـراف، وفـي النهاية؛ صـف من النسـاء والرجال يرتجفـون جميعهم من البرد، منهكين من طـول المسيرة، شيوخ عاجزون ومرضى، أمهات يحملن أطفالهن على ظهورهن، على حافـة الهـلاك. وقفوا ينتحبـون أو يقضون حاجتهـم، أو يطلبون كسرة خبز، أو جرعات حساء من مواطنيهم، يبدون في حالة من الفوضـى. سيارات ودراجات بخارية متعطلـة، حيوانات نافقة، مراتب وأغطيـة متهرئة ملقاة في الطريق، وذلك خلال الهروب اليائس ناحية الجبـال. حرمهم الرعب من القصف، وقمع الجيش الوحشي من التفكير بحكمة، فأضحوا مثل قطيع بائس مرتعب، أو خلية نحل مدهوسة ومتناثرة. فهـذا الطفل يمسك بشقيقه الأصغر، وهـذا الكهل يحمل على كتفيه الجسـد الضامر العليل لزوجته، هل يعرفـون جميعًا إلى أين يذهبون ومن سيستقبلهم؟ وهل سيسمح لهم حراسـ الحـدود؟ أم سيدفعون بأعقاب أسلحتهـم؟ هل سيضعونهم خلف الأسوار في أماكن موحشـة؟ أم ترى سيعيدونه إلى أعدائهم

مــن دون هــوادة؟ لــم يبدُ أن أحــدًا ما يعــرف ، أو حتــى فكر في الأمــر . هــول الكارثة محــق كل شيء ، تركوا فــي العراء الخلاء البدائــي لقصة قاسية متكررة؛ الرعــب ، وغريزة البقاء وحسب ، هذا الضوء لحيــوان مطارد يقبع في بؤبؤ العيــن ، الشك والذهول لمــن يقتل على يد جــزار مجهول ، أو خلال شعيــرة ألفية للضحايا والنذور . جلس متكورًا على نفسه في مملكته الصغيرة يشهد هجرة الشعوب بكاملها ، من دون قادة أو زعماء ، يعبرون البحر الأحمر من دون النبــي موسى المخلص ، ولا أمل فــي أرض الميعاد عند نهايــة هروبهــم المرتكب الأهوج ، أتــرى هل كانوا مــن الأكراد الناجين من مذابح حلبجة ودهوك والموصل؟ أم أنهم ببساطة ليسوا إلا مواطنيــن من بلاده ، عبروا منذ اثنين وخمسين عامًا مضت من قريتهــم القطالونية ، وهم أشتات قذرون يضعون أثمالاً رثة بالية ، يخلفــون آثارًا من البــراز والجثث؟ ترى هل يعرضــ التليفزيون صور مــا يحدث في الوقــت الحالي فــي أعقاب أربعيــن يومًا من القصف الجــوي الجهنمــي ، أم أنه استدعاء لذكريــات مدفونة في ذاكرته لشبح الحرب الأهلية؟

كان يشك ، ولا يزال في شك .

حسنًا ، مــن يكتب هذه الصفحة بحق؟ أهــو الكاتب ستيني العمر منكبًا على طاولته ، أم الطفل الغر البريء الذي شهد للمرة الأولى في حياته انهيار حلم ونهاية مباغتة لأمله .

قالـت له: هـل لاحظت ذلـك؟ إننا فـي نهايـة الأربعينية. يوم آخـر، ونص آخر وأنفصـل عنك، بعيدًا عن البـرزخ، لأتلاشى تمامًا إلـى الأبد في الخفية، إلى يوم البعـث العظيم. أخذت تتطلع لصورتـك بحـزن تتخللـه ابتسامة عابـرة ذائلة، مثلما فـي الأيام الخوالـي حين كانت تتـردد عليك فـي الأستوديو القديـم الخاص بك، ومعها ترجماتها فتتحدثان على ثربانتس، روخاس، دانتي، وابـن عربي. ومنحها لقاؤها غير المتوقع بك بعد عبورها مساعدة كبيرة؛ فعبء الأشياء التي لم تعبر عنها في العالم الشنيع ظل يتراكم بداخلهـا، كأنها حبر لا طائل منه في المحبـرة، يمنعها من الإفادة منه وضعها الحالي. فهل كان ذلك نتيجة عدم انفصالها الكامل عمّا هو محسوس، مثلما اعتقدت هـي؟ أم هي عين خيالك التي لم تقدر أن تتمثلها إلا في شكلها وهيأتها السابقين؟ وتعدد المفارقات الزمنية والهذيان والقفزات الزمكانية خلال فترات تجوالكم، هل هو نتاج الوجود الواقعـي؟ أم يخضع للقراءات المتعمقـة لـ «ابن عربي»؟ تعجز عن الرد اليقين، فاكتفيت بتأملها تطوقك الشكوك، فيما بقيت هـي أو خيالها بنظر ضال شاخص إلـى الأسطح وحجراتها، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة للاصفـرار، والأشباح البعيدة لناطحات سحاب «لاديفانس».

هـل حانت ساعة الوداع؟ رأيتها تنهض مـن مجلسها، وتسألك مجـدداً إذا كان الدخـان يزعجـك. قالـت: سيجـارة «جلوزبلو» أخيـرة. مددت إليها المطفأة الافتراضية، كما هي العادة، ومكثت مبهوتًا إلى جوار مكتبك المغطى بالأوراق والقصاصات.

هل كانت ترتدي كنزة صوفيـة وبنطالاً جينزا مثل ذاك المساء الـذي شاطرتكم فيه العشاء ولم ترها مجدداً؟ سمعتها: اكتب، اكتب عنى ثانية. فاهتمامك واهتمـام من سيقرؤونك في المستقبل سوف يبقيني على قيد الحياة.

-40-

حـدث كل ذلك خلال فترة احتضـاري القصير. وحين انتهيت مـن الكتـاب نهضتُ مـن الفراش الذي رقـدتُ فيه مـن دون أن يلحـظ أحد، ارتديـت بذلتي الوحيدة التي حافظـت عليها، أحكمت عقـدة رباط العنق القديـم المنسي، واستقللت الحافلـة للذهاب إلى مقر المحكمـة. استعلمت من حارس الأمن الذي دلني بدوره على المصعد الذي حملني إلى الدور السابع؛ حيث يلتقي جميع المدعوين إلـى الأربعينيـة. كان المكان خاليًا حين وصلـت، ولكنني اتبعت نصيحة الساعـي، وطرقت الباب الصلب لمكتـب التحقيقات الذي عُلقت عليه لوحة معدنية مذهبة، نقش عليها اسما منكر ونكير.

انتـــهت

المؤلف فى سطور:

خوان جويتيسولو (برشلونة، ١٩٣١)

أحد القامــات الأدبية الأشهر في الأدب الناطق بالإسبانية تنوع نتاجــه الأدبي ما بين الرواية والقصة وأدب الرحلات والدراسات النقديــة والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامــه بقضايــا كونية والتعدديــة الثقافية ورغبته الجــادة وعمله الحثيـث من أجل سبر أغوار عوالم مغايـرة والتعرف على الآخر معرفــة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثــل آراء النقاد ولجان التحكيم التــي تناولت أعمالــه وارتــأت التعددية والانخراط فــي الثقافات المتنوعة ليسـن فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء بينها ودروبها، وبين الثقافــة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التــي تحل فيها الثقافة الإسلاميــة العربية ركنا لا يقبل النــزاع. بهــذا الشكل تطــل كتابــات جويتيسولو بسماتهــا الكونية السرديــة لتجمــع بين الشــرق والغــرب والأيديولوجيــات الدينية والفكريــة بأنواعهــا، وهو ما تتكئ عليه بنية روايــة «الأربعينية» (١٩٩١).

المترجمة في سطور:

د. عبير محمد عبد الحافظ

- أستاذ اللغة والأدب الإسباني بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة.
- درست الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة وجامعة كومبلوتنسي مدريد.
- لها العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية الدولية المحكمة بالعربية والإسبانية.
- أشرفت على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- أستاذ زائر بجامعة ثاراجوثا، وكاستيا لا مانشا، وأوتونوما وكومبلوتنسي مدريد.
- لها ترجمات متنوعة من أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية (روبرتو أرلت، وخوليو كورتاثار، وخوسيه ماريا ميرينو، خورخي مانريكي، وبدرو مير، وغيرهم).
- تشغل حاليا منصب مدير مركز الدراسات والثقافات الأيبروأمريكية بجامعة القاهرة.

التصحيح اللغوى: هبة الله محمد
الإشراف الفنى: حسن كامل



يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يوماً التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلةً روحية صوفية، ينطلق منها ليرصدها في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعداً إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج، يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"المراتب السبعة" لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مروراً بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومي، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والأسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيبيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث وغيرهم.

وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دوماً خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة، حيث المساجد والمقابر والأضرحة، واستشراف الأجواء السحرية الغامضة التي تعقب الأربعينية.

صورة الغلاف للكاتب خوان جويتيسولو
تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح